يوميات زين

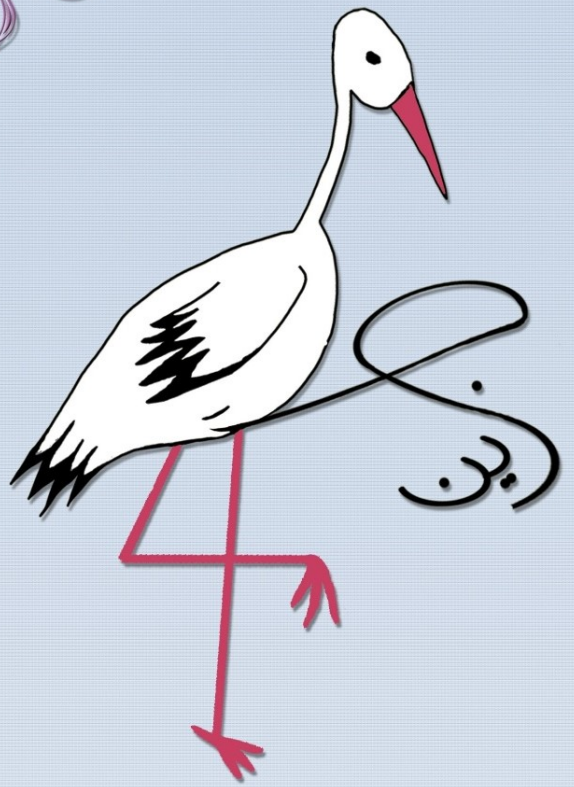

لبنى القلعاني

Zyne's Diary

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

یومیات زَین

الكتاب: يوميات زَين

تأليف: لبنى القلعاني

الإصدار الأول 2022

ISBN: 9789189288522

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:

2022-07-30

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني:

digitizethearabicbook.com

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الاتحاد العالمي للمثقفين العرب.

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. المؤلف هو المسؤول عن المحتوى

All rights reserved, and no part of this book may be reproduced or transmitted in any form without a prior written permission of the rights owner.

صباحٌ ليس ككلّ الصَّباحاتِ، ألوانُه الدَّافئةُ تُعلنُ بدايةَ الخريفِ. فتحتُ عينيَّ على صوتِ والدي، يُزيحُ ستائرَ نافذتي قائلاً:

يا لهُ من يومٍ خريفيٍ جميلٍ مع كوبِ الحليبِ الدَّافئِ.

ارتسمَ هلالٌ على شفتيّ، وهمستُ:

هذا هو أبي المُتفائلُ دوماً.

عبرَ نافذتي وحوافِها البيضاءِ رأيتُ الأشجارَ تكتسي بأثوابٍ متدرجةِ الألوانِ؛ أخضر فاتح، برتقالي، أصفر، وبُنّي.

وتطايرتْ بعضُ أوراقِها راحلةً عنِ الأغصانِ، ترسمُ لوحاتٍ مذهلةً في فضاء الحديقةِ.

وأطلَّت الشَّمسُ بهدوئِها وحرارتِها اللَّطيفةِ، قُربَ سربِ الطُّيورِ المُهاجرةِ.

وما هي إلا لحظات حتَّى أصبحَ زجاجُ النَّافذةِ مُرقَّطاً ببقعٍ بيضاءَ عندما قفزتْ بيلا إلى حضني لتشاركني كأسَ الحليبِ، فطارَ منْ يدي وتناثرَ الحليبُ حولي وراحتْ بيلا تلاحقُ القطراتِ البيضاءَ على النافذةِ والفراشِ.

قطَّتي المُدلَّلة، نسيَ أبي أنْ يُحضرَ صحنَها اليوميّ فطالبت بحقّها بطريقتها الخاصّة.

هناكَ فوقَ طاولتي البنفسجيّةِ، انتظرني قلمٌ ملوَّنٌ

برفقةِ دفترٍ صغيرٍ، غلافُه بلونِ السَّماءِ!

كان هديَّةً مميَّزةً في صباحٍ خريفيّ الألوان...

فتخيَّلتُ بيلا بفروها الأبيضِ المزيَّن ببقعٍ برتقاليةٍ

وبنيةٍ تقفزُ داخلَ الدفترِ فتزيّنُ صفحاته بالحكايات...

مغامرة في السوق

اجتمعنا كلُّنا؛ أنا، أبي وأمّي، أختي الكبرى سلمى، وأخي الصَّغيرُ هادي، في حديقةِ المنزلِ، حولَ طاولةٍ حَجريَّة، صنعَها والدي بيديهِ من أجلِ اجتماعاتِنا الصَّباحية، وبيلا تلعبُ بجوارنا.

بعد تناولِ الفطورِ، انحنتْ أمّي لتربطَ حذائي، والابتسامةُ تنيرُ وجهها الحنونِ.

حاولتُ مراراً الانحناءَ، ولم أنجحْ؛ فلا يُمكنني الوصولُ إلى الحذاءِ.

درَّبتُ نفسي على الكثيرِ من الأشياءِ هذا العام، لكنْ هذهِ الرَّبطةُ لم أجدْ لها حلاً!

خرجنا نحو السُّوقِ، أنا وأمّي وسلمى، بينما هادي الصَّغيرُ وبيلا أمضوا الوقتَ مع جَدّي وجَدّتي...

تمنيتُ البقاء معهم، لكنّي أحتاجُ لحذاء جديدٍ، فقدماي تكبرانِ، رغم أنَّ أحذيتي دائماً تبقى جديدة...

اخترتُ حذاءً بُنيَّاً مُريحاً، وقدَّمتُ حذائيَ القديمَ كما اعتدتُ دائماً لطفلٍ يحتاجُه، كان يبيعُ البسكويتَ، ليُساعدَ عائلتَه في توفيرِ قوتِ يومهم.

فقفزَ قلبي فرحاً عندما شاهدتُ ابتسامتَه.

عجبتُ كيف يمرُّ النَّاس بجواره كأنَّه يرتدي قبعةَ الإخفاء!

تابعنا طريقنا، وأنا أتمتمُ :

الحذاءُ سجنٌ للقدمِ، ليتني أستغني عنه.

فقالتْ سلمى: بل هوَ لحمايةِ قدميكَ وتدفئتِهما.

أجبتُها : البطريقُ يعيشُ حافي القدمينِ، اعتادَ جسدُهُ برودةَ الثَّلجِ.

ضحكتْ سلمى: لكنَّك لستَ بطريقاً يا زَين !

كم تمنيتُ لو كنتُ كفتى الأدغال، يسيرُ حافياً بحريّةٍ، لا قيدَ حولَ قدميه، يختبرُ حياةً جميلةً مع الطّبيعة...

انتظرتُهم على الرَّصيفِ، خارجَ محلّ الملابسِ، أقلِّبُ نظري بينَ المارةِ، وأراقبُ ظِلالَهم.

لكنّي نسيتُ قفلَ فراملِ العجلاتِ؛ فاندفعتْ تدورُ بسرعةٍ، وتنزلقُ على الرَّصيفِ المُنحدرِ بشدّة، ولم أستطعْ إيقافَها!

والمارةُ يبتعدونَ يميناً ويساراً خوفاً من الاصطدامِ بالكرسي، ولم يحاولْ أحدُهم إيقافَه!

فاستمرَ الكرسي بالانزلاقِ، وقلبي ينزلقُ معه، إلى أن اقتربتُ من مفترقِ طرقٍ؛ هناكَ أصبحَ لكلّ ثانيةٍ أهميةٌ كبيرةٌ، فضاقَ تنفسي، وتسارعتْ نبضاتُ قلبي؛ كأنَّه سيخرجُ من صدري.

وماهيَ إلا خطوات قبلَ وصولي إلى حافةِ الرَّصيفِ، حتَّى توقفَ الكرسي فجأةً!

وإذ بشابٍ قويّ البُنيةِ خلفي قد أمسكَ به، وأوقفَه قبل الانزلاقِ إلى الشَّارعِ.

ثمَّ بدأتْ رحلتُنا معاً للبحثِ عن أمّي وسلمى، فلم أتذكَّرْ اسمَ المحلِ.

أثناءَ بحثنا همستُ: أين شاهدتُ هذا الشَّاب؟

يبدو مثل ماجد، لكنْ لا يعقلَ أن يكونَ ماجد

نفسه يدفعُ كرسيّ الآن!

ضحكتُ للفكرةِ، فسمعَ الشَّابُ ضحكتي،

وقال: ما الأمرُ يا صديقي؟

أخبرتُه أنّه يشبهُ كثيراً لاعبي المفضَّل ماجد،

فأنا أعشقُ كرةَ القدمِ، وأتابعُه دائماً.

ابتسمَ مُردفاً: أنا هوَ!

ثمَّ توقفَ وانحنى ليسلِّمَ علي .

إنَّه ماجد، لاعبُ كرةِ القدمِ الشَّهيرِ!

لم أصدقْ عينيَّ، تحققَ حلمي في لحظةٍ كادتْ تكونُ حادثاً عجيباً!

وعدني ماجد بتذكرةِ حضورٍ للمباراةِ القادمة،

لنتشاركَ بعضَ اللَّحظاتِ الممتعةِ.

وبعد ساعةٍ من البحثِ، وجدتُ أمّي تبكي أمامَ أحدِ المحلاتِ، وتسألُ المارةَ عنّي، وسلمى تضعُ يديها حولَ خديها حائرةً.

كمنْ عادتْ إليهِ روحُه، حضنتْني ماما وسلمى، وشكرتا ماجد.

قلتُ لسلمى ضاحكاً:

مغامرةٌ لا تُنسى!

اليومُ الأولُ في المدرسةِ

اقتربَ أبي يجرُّ الكُرسيَ المتحرك نحو سريري، وقالَ:

هيا يا زَين، إلى يومٍ منَ النَّشاطِ...

لم أكنْ سعيداً بعودةِ المدرسةِ؛ فعليَّ الاستيقاظ باكراً كلّ يومٍ، وتحمُّل بعض المزعجينَ المتنمرينَ هناك.

ساعدني والدي على النُّهوضِ والجُّلوسِ في الكرسي، فحرَّكتُ العجلاتِ، غسلتُ وجهي وأسناني، وعدتُ إلى غرفتي، رتَّبتُ أغطيةَ سريري الخشبي وأنا ألتفُّ حولَه بالكرسي.

نادتني أمّي، لتناولِ طعامِ الفطورِ، نظرتُ إلى عينيها الجميلتينِ، وكم تُخبّئانِ من الحبِّ والحنانِ؛ تمنيتُ أن أخففَ عنها جزءاً من أعبائي وأساعدَها؛ لكنَّها تقولُ دوماً:

أنت أملي في الحياةِ، جميلٌ وشجاعٌ وذكي،

علَّمتَني الكثيرَ يا زَين.

وأنا أتساءلُ: ماذا تعلَّمتْ أمّي منّي يا ترى؟!

فأنا من يتعلمُ منها على الدَّوامِ.

حملني أبي، ووضعني على المقعدِ، ثمَّ طوى الكُرسي كي يضعَها في صندوقِ السَّيارة.

وصلنا إلى المدرسةِ، وهناك كانت المُساعدةُ رنا تقفُ أمامَ البابِ، بابتسامتها التي رافقتني لسنوات، لتعتنيَ بي في المدرسةِ.

إنَّه يومي الأولُ هذهِ السَّنة، رفاقٌ جددٌ في الصَّفِ، نظروا إليَّ تلك النَّظراتِ التي اعتدتُ تجاهلَها؛ فلم أبالِ. بينما أصدقاءُ السَّنةِ الماضيةِ، سامر، فادي، وفرح، أسرعوا إليَّ مرحبين.

دخلَ الأستاذُ سعيد، وألقى التحيَّةَ على الجميعِ؛ شعرتُ بالارتباكِ، فلم ألتقِ به من قبل، ولا أعلمُ ما ينتظرُني هذا العام.

عانيتُ السَّنة الماضية من تمييزِ الأستاذ عادل، الذي كان يتجاهلني رغم محاولاتي الدَّائمة لأفرضَ وجودي في الصَّفِ، ورغم علاماتي الجَّيدة في أغلبِ الموادِ!

اليوم، طلبَ الأستاذُ سعيد أن نذكرَ أسماءَنا، مشيراً لي في البدايةِ، ورحبَ بنا جميعاً، بدا لطيفاً، وتعاملَ معي مثل باقي الأطفال، ولأولِ مرةٍ منذ سنواتٍ، شعرتُ بوجودي في الصَّف.

في نهايةِ يومي، أسلمتُ رأسي لوسادتي الصُّوفيةِ، وتركتُ لها أفكاري، تأخذها كيفما تشاء، سمعتُ ضجيجاً داخلَ الوسادةِ، فركتُ عينيَّ، وهززتُ رأسي، لأتأكد أنَّي صاحٍ!

فامتدتْ أذرعٌ صوفية إليّ، وسحبتني داخلها، لأجدَ نفسي في عالمٍ آخر؛ كلُّ شيءٍ فيه مصنوعٌ من الصُّوفِ، طرقاتٌ ملوّنةٌ ومنازلُ من الصُّوفِ،

الصُّوفُ الملوّنُ في كلّ مكانٍ!

تجولتُ وركضتُ وتزحلقتُ فوق خيطانِ الصُّوفِ، وركبتُ دراجةً عجيبةً لأولِ مرةٍ، فلم أختبرْ شعوراً كهذا من قبل...

سمعتُ تلك الضوضاء ثانيةً، بدتْ أكثرَ وضوحاً!

فكانت صوتاً ينادي:

هيا يا زَين أسرع، هيا أسرع...

امتطيتُ الدَّراجةَ، وانطلقتُ كفارسٍ فوق حصانٍ، يعدو مُسرعاً، لأجدَ نفسي في الملعبِ.

وهناك عند ذلك المنعطفِ الأخضرِ التقيتُ الكابتن

ماجد، فطلبَ أن ألعبَ معهم كرةَ القدم.

لم أصدقْ ما قاله!

هل حقاً سألعبُ مع الفريقِ؟!

سمعتُ الصَّوتَ من جديد:

هيَّا، هيَّا أنت شجاعٌ، اضرب الكرةَ يا زَين...

بحثتُ حولي، من المتحدّث!

فرأيتُها أخيراً، قطتي بيلا تقفز مشجعةً مع أوراقِ

الشّجرِ البرتقالية.

لعبتُ كرةَ القدمِ لأولِ مرةٍ في حياتي، كان يوماً ممتعاً؛ وقفزتُ عالياً جداً من شدةِ الفرحِ، فعلقتُ بخيطٍ صوفي في الأعلى!

تمسكتُ جيداً كي لا أقع، وتسلقتُ الخيطَ إلى تلةٍ خضراءَ، هناك صاحَ فادي:

أين كرسيّك يا زَين؟

تجاهلتُ سؤالَه، وركبتُ دراجتي أشقّ طريقاً مجهولاً، وعَينا فادي تراقبني، وهو يتمتمُ:

زَينٌ يمشي على قدميه!

زَينٌ يمشي على قدميه!

فتحتُ عينيَّ، عندما طارتْ ورقةُ شجرٍ برتقاليَّة من نافذتي والتصقتْ فوق جبهتي؛ فأيقظتني لأعودَ منَ الحلم إلى غرفتي.

جلستُ قربَ طاولتي البنفسجيةِ، وبرفقةِ قلمي الملوَّنِ، رسمتُ هذه الكلماتِ، وزينتُ أولى صفحاتِ دفتر يومياتي بورقةِ الشَّجرِ البرتقاليةِ.. .

شجارُ سامر وفادي

اليوم، تشاجر فادي وسامر في المدرسةِ، وتخاصما واعدَينِ أنْ لا يتحدثا معاً ثانيةً.

لم أستطعْ حلَّ مشكلتهم، واحترتُ بينهم!

عدتُ إلى البيتِ صامتاً، تناولتُ غدائي مُرغماً، وبصعوبةٍ حاولتُ رفعَ حاجبَيَّ ورسمَ قوسٍ بفمي، لأبتسم لعائلتي أثناء مزاحهم.

تذكرتُ كيف كانت بدايةُ صداقتِنا؛ منذُ العطلةِ الصَّيفيةِ، أصبحنا نحنُ الثَّلاثةُ، أنا، سامر، وفادي رفاقاً مقربين نُمضي أوقاتاً ممتعةً معاً.

تعرفتُ على سامر السَّنةَ الماضية في المكتبة؛ فهو يعشقُ الكتبَ، وبينما كنتُ أبحثُ عن كتابٍ، رجعتُ إلى الخلفِ؛ واصطدمتُ به؛ فكادَ يقعُ، لكنَّه أمسكَ الكُرسي ضاحكاً، بخلافِ البعضِ، الذين كانوا يستشيطونَ غضباً، إن حدثَ ولامسَ الكرسي أحدهم دون قصدٍ،

أمَّا سامر فقالَ:

لا عليكَ يا صديقي.

سامرٌ ذكيٌ، هادئٌ، وبنيتُه قويّة، تمشينا معاً بعد عودتنا من المكتبةِ، نناقشُ أفكاراً قرأناها مؤخراً، وطلبَ من أبي أن يَدفع الكُرسي؛ فتركَ لنا أبي حريَّةَ المسيرِ، ومشا خلفنا بأمتارٍ.

يبدو بابُ المكتبةِ بلونه النيليّ كممرٍ سحريٍ إلى كونٍ آخر، واكتشافاتٍ مثيرةٍ، تنتظرُنا بين طياتِ الصَّفحاتِ، وأسطرِ الكتبِ.

كانتِ المكتبةُ فكرةً عبقريةً، قدمتها الآنسةُ ناديا، من أجلِ البلدةِ. فاقترحتْ على من يرغب:

أن يتبرعَ بكتبهِ إلى المكتبةِ، كي تسنحَ الفرصة

للجميعِ باستعارةِ الكتب، وقراءتِها داخلَ المكتبةِ،

وهكذا نتشاركُ جميعنا الكتبَ والأفكارَ...

بعد لقائنا أنا وسامر، عبر الممرِ السّحريّ؛ أصبحنا صديقين مقربين، نرتادُ المكتبةَ معاً في أيامِ العطلِ...

أمَّا فادي فهو حساسٌ، دائمُ الابتسامِ والمرَحِ، علاقتُه قويّةٌ مع الطَّبيعةِ، يُحبُّ النَّباتاتِ والحيواناتِ مثلي.

انتقلَ مع أهلهِ إلى البلدةِ منذ سنة تقريباً،

واستقروا في منزلٍ قريبٍ، فوق تلكَ التَّلةِ الخضراءِ المجاورةِ لمنزلي.

وفي كلّ مرةٍ نتذكرُ فيها لقاءَنا الأولَ، نغرقُ في نوبةٍ

من الضَّحكِ؛ حيثُ أضاعَ فادي طريقَ العودةِ،

لأنَّه جديدٌ في المنطقةِ.

فدخلَ حارتَنا؛ ورأيتُه حينها من نافذةِ غرفتي، يقفُ أمامَ منزلنا حائراً، لا يعلمُ ماذا يفعلُ، يتحركُ يميناً، ثمَّ يبتعدُ يساراً، ثم يعود يميناً ثم يساراً

ويحدث نفسه :

منزلي في أي اتجاه!!

ناديتُه وسألتُه إنْ كان بحاجةٍ لمساعدة، فارتبكَ قليلاً،

ثمَّ قالَ:

صراحةً أضعتُ منزلي، أنا جديدٌ هنا، وتبدو جميعُ

الطُّرقاتِ متشابهةً.

فدعوتُه للدخولِ، وساعدناه بالعودةِ.

ومنذُ صعودِنا تلك التَّلة معاً، بدأت صداقتنا.

سامر وفادي صديقان مقربان أيضاً، سأبذلُ كلَّ

جهدي لإصلاح ما حصلَ بينهما...

لا أحبُّ اليقطين

استيقظتُ والحكةُ تأكلُ أعلى ظهري؛ إنَّها تلك البطاقةُ القماشيةُ المزعجة، نسيَتْ أمّي قصَّها من ملابسِ النَّومِ الجَّديدةِ.

عجبتُ لماذا لا يطبعونَ المعلوماتِ على الملابسِ!

بل يُصرُّون على إزعاجنا بهذه البطاقاتِ المسببةِ للحساسيةِ، ولم يفكرْ أحدُهم بالتغييرِ، أو ابتكارِ فكرةٍ جديدةٍ، تخففُ عن أعناقِنا بعضَ الاحمرارِ والحكَّةِ.

وبينما كنتُ أحاولُ نزعَها، دخلَ هادي تسبقهُ ضحكتُه الشَّقيةُ، مُسرعاً ليركبَ الكُرسيَ المتحرك، قبلَ أن يأتي أبي وأمّي...

متعةُ هادي اللّعبُ بالكُرسي، كان يتسللُ دائماً إلى غرفتي، ليتسلَّقَ عليه ويُحركه، مُتخيّلاً إيَّاهُ سيارةً عجيبة.

أنا أتذمرُ من الكُرسي طوالَ الوقت، وهو يلاحقني:

أنت محظوظٌ يا زَين، أريدُ كرسي مثلك.

أخي الصَّغيرُ المُشاكسُ، يُشبهُ قطَّتي بيلا بشقاوتِه، وشعرهِ الأشقرِ المُجّعدِ.

أحضرَ لهُ والدي دراجةً صغيرةً، ولم تعجبْه، بل يريدُ كرسي مثلي!

لدى أمّي اليوم مقابلةٌ من أجلِ عملها في التَّرجمةِ، وأبي في إجازةٍ، أوصلتني بالسَّيارةِ إلى المدرسةِ، وذهبتْ إلى عملها.

وعند عودتنا على الغداءِ، كان أبي قد طبخَ لنا طعاماً بنكهة جديدة لم نجرّبها سابقاً، استخدمَ فيه اليقطينَ، وقالَ أنَّه مغذٍّ جداً.

لا أحبُّ تجربةَ الأشياءِ الجَّديدةِ، ولا أحبُّ اليقطينَ!

أُفضّلُ ما اعتدتُ عليه، همستُ لنفسي:

ماذا سأفعل؟

أبي يظنُّ أنَّه حضَّر لنا طبخةً لذيذةً!

وبينما كانت سلمى تنتظرُ الغداءَ بفارغِ الصَّبرِ، لم أرغبْ أنا بتناولِه، فأخبرتُهم أنّي أشعرُ بنعاسٍ شديدٍ، ولستُ جائعاً؛ وانطلقتُ إلى غرفتي، أُجهزُ نفسي لصعودِ السَّريرِ، فتبعتني أمّي،

وقالتْ:

ما الأمرُ يا زَين! ألن نتناولَ الغداءَ معاً؟

أخبرتُها أنّي نعسانٌ جداً، ولا يُمكنني تناولُ الطعامِ الآن؛ فساعدتني لصعودِ السَّريرِ، وأسلمتُ رأسي لوسادتي الصُّوفيةِ.

فكرتُ بأختي سلمى، وحماسِها الدَّائمِ لتجربةِ كلّ شيءٍ جديدٍ، طعاماً، ألعاباً، أو أماكن!

سلمى تكبرُني بسنتين، ولكلٍّ منَّا طبيعتُه الخاصَّة، حاولتْ اقناعي مراراً، قائلةً:

" التجربةُ يا زَين تُعطينا المعرفة، حتَّى لو كانت صعبة، فالكثيرُ من الأشياءِ لم أتعلمْها لو لم أخضْ تجاربَ مختلفة، وكذلك الأطعمةُ لن أعرفَ ما أحبُّ دون تذوقِها "

لكن دون جدوى، ما زلتُ أهابُ تجربةَ كلّ ما هو جديد.

غرقَ رأسي في وسادتي الصُّوفية، فسحبتني الخيوطُ داخلها، وهناك تأرجحتُ بخيطانِ الصُّوفِ، التي تحولتْ إلى معكرونةٍ شهيَّة، وراحتْ تتراقصُ حولي، والجُّبنُ اللَّذيذُ يتناثرُ في كلّ مكان!!

استيقظتُ وطعم الجُّبن في فمي والجُّوعُ يلتهمُ معدتي، لكنّي شممتُ فعلاً رائحةَ المعكرونةِ، وظننتُ أنّي مازلتُ أحلمُ، وماهي إلا دقائق، حتَّى دخلتْ أمّي، ومعها طبقُ المعكرونةِ اللَّذيذِ...

درسُ الرّياضة

قُربَ الملعبِ الأخضرِ في المدرسةِ، تحتَ ظلالِ أشجارِ السَّرو والصَّنوبرِ، راقبتُ رفاقي يلعبونَ كرةَ القدمِ والسَّلةِ.

شجعتُهم مُتحمساً، أغمضتُ عينيَّ وركلتُ الكرةَ، فأصبتُ الهدفَ وصحتُ عالياً:

هد ---------- ف.

ذُهلَ الجَّميعُ، ونظروا إليَّ ضاحكين، فلم يحققوا أيّ هدفٍ حتَّى الآن!

نادى سامر: هل أنت بخيرٍ يا زَين!

شعرتُ كأنَّ الدّماءَ تجمعتْ في رأسي، ثمَّ أدركتُ ضاحكاً:

أنا بخير، لا عليك يا صديقي.

أمسكتُ بعضَ أوراقِ الصَّنوبرِ، وفركتُها لأستنشقَ رائحتَها، مودِّعاً التَّوترَ الذي أصابني.

كم تمنيتُ لو استطعتُ التَّحررَ من هذا الكُرسي اللَّعينِ!

لو استطعتُ القفزَ عالياً!

لو أمكنني الطَّيرانُ!

لو لم يكنْ هناك جاذبيةٌ! لطرتُ في الفضاءِ دونَ عناءٍ.

لاحقني حرف " لو " دوماً، رغم أنَّه لا عمل له ولا نفع...

بعد قليلٍ اقتربتْ نور، فتاةٌ نحيلةٌ بأنفٍ مدببٍ وعينين صغيرتين، متنمرةٌ لا تنفكُ تُزعجُ الجَّميعَ، وتسخرُ من ساقيّ النحيلتين.

قالتْ ضاحكةً:

هل نبتَ لك جناحانِ يا صاحبَ الأرجلِ النَّحيلةِ؟

فأدخلْتَ هدفاً في الغيمةِ!

تمالكتُ نفسي، وصرختُ في وجهها:

لي ساقا لقلقٍ، وأحلّقُ بعقلي إلى أماكنَ يعجزُ خيالك عن الوصولِ إليها؛ فاجأتها بصوتي فابتعدتْ عنّي.

لا أعرفُ سرَّ تعلقي بطائرِ اللّقلق، لكنّي معجبٌ بوقفتِه على قدمٍ واحدةٍ، فكيفَ لهذهِ القدمِ النَّحيلةِ أن تحملَ جسدَه الضَّخمَ!

قبلَ سنواتٍ، كان المتنمرون يزعجونني، وأعودُ إلى البيتِ باكياً؛ هشاً ضعيفاً، فلم أحب المدرسةَ، وخفتُ من مواجهةِ الآخرين.

أمَّا اليوم لم تعدْ نظراتُهم وكلماتُهم الجَّارحةُ تعنيني، ولم تعدْ تعليقاتُهم تثيرُ غضبي، بل أشفقُ عليهم، فأنا حقاً سعيدٌ أكثرَ منهم، والبعض يعود للاعتذارِ عن حماقاتِه معي.

تمتمتُ باسماً: ماذا حقاً لو أصبحَ لي أجنحة؟!

هل سأصبحُ سوبر زَين، كما يناديني أبي أحياناً؟!

مساءً جلستُ مع أبي قربَ نافذتي، نثرثرُ حولَ بعضِ الأمورِ، عيناه العميقتان تأخذني بعيداً كلَّما نظرتُ إليهما.

حاولتُ مراراً تصفيفَ شعري مثله إلى الخلفِ، فتأبى خصلاتُ شعري النَّاعمةُ الرُّجوعَ وتنسدلُ على جبهتي.

عملَ أبي مُحرراً في صحيفةٍ، وعشقَ عمله، فكان يُطلعني أحياناً على بعضِ مقالاتِه، وفي الغالبِ كانت اجتماعيةً، تناقشُ الكثيرَ من الأمور التي حلمَ بتغيرها، وخاصةً فيما يَخصُّ شؤونَ الأطفالِ. قالَ لي:

أتعلمُ يا سوبر زَين! أنت وهبتَ حياتي معنىً أجمل وأملاً أكبر.

عندها هربتِ الكلماتُ من حنجرتي، فكانتْ إجابتي ابتسامةً صامتةً، وتابعتُ وضعَ الحبوبِ على نافذتي ذاتِ الحوافِ البيضاءِ من أجلِ طيورِ الحديقةِ.

ثم انضمَّتْ أمّي إلينا، تحملُ سلطةَ الفاكهةِ المنوَّعةِ، وماهي إلا لحظات، حتَّى اختفى والدي، ليعودَ مع الصُّحون الملوَّنةِ، وتبعهُ هادي قافزاً إلى الكُرسي،

ودخلتْ سلمى مع موسيقاها العذبةِ، ترقصُ حولنا وتلفُّ وتدور بجديلتيها وشرائطها الملوَّنةِ كفراشةِ الحقول.

درسُ الفنونِ في المدرسةِ

دخلْتُ المدرسةَ سعيداً بعلبةِ الألوانِ الجَّديدةِ، مُنتظراً درسَ الآنسةِ حنان، مُدرّسةِ الرَّسمِ الرَّقيقة، الّتي شجعتني كثيراً السَّنة الماضية، لأشاركَ في المعرضِ السَّنوي في البلدةِ، لكنّني أُصبتُ بالتهابٍ رئوي منعني منَ المشاركةِ.

وعدتُ نفسي لن أخذلَها هذا العام، ولن أخذلَ حلمي، سأقيمُ معرضاً خاصاً بي؛ فأبدعتُ في تلوينِ الطَّبيعةِ، ورسمِ الطيورِ تُحلّقُ عالياً...

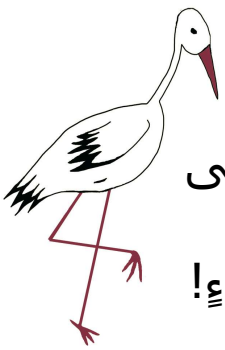

لم يفارقْ صديقي اللَّقلقُ لوحاتي، فكان واقفاً على ساقٍ واحدةٍ نحيلةٍ، تتحدى ثِقلَه وتحملُه دون عناءٍ!

اعتدتُ قضاءَ معظمِ أوقاتِ الاستراحةِ بين الحصصِ في الرَّسمِ، هوايتي منذُ الصّغرِ، بينما يلعب رفاقي ويتراكضون في الباحة...

منذ سنواتٍ، رسمتُ الشَّجرَ مُتهدِّلَ الأغصانِ كشجرِ الصّفصافِ الذي تكادُ أغصانُه تلامسُ الأرضَ، وعلمتُ بوجوده في بلادٍ بعيدةٍ، كما رسمتُ الزُّهورَ خجولة منحنيةً كزنابقِ الوادي البيضاءِ الجميلةِ.

أمَّا اليوم، وجدتُ نفسي أرسمُ الأشجار ترفعُ أغصانها نحو السَّماء.

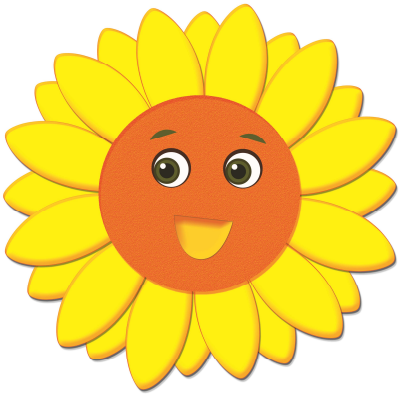

وأعشق رسمَ زهورِ ميَّالِ الشَّمسِ، تفردُ بتلاتِها نحو الشَّمسِ بحثاً عن النُّورِ.

لم تأتِ الآنسةُ حنان، بل دخلتْ مُدرّسةٌ جديدةٌ، وعرَّفتنا على نفسها:

أنا ريمُ، مدرسةُ الفنونِ لهذا العام.

وقبل أن أُرحبَ بها، سبقتني الكلماتُ صارخةً:

لكن أينَ الآنسة حنان؟

أجابتْ ريمُ بهدوء: سافرتْ خارجَ البلدِ.

تجمدتُ في مكاني، حدقتُ في الفراغِ، وهمستُ لنفسي:

سافرتْ؟! وأنا قادمٌ أحملُ حلمي، وأريدُ إخبارها الكثيرَ عن لوحاتي!

خُيّلَ إليَّ أنَّ اللّوحات والمجسَّمات التي صنعتُها تصرخُ بأفواهٍ مفتوحةٍ، تحتَ سماءٍ حمراءَ غاضبة؛ فذابتْ ساعتي واختلطتْ الأزمنةُ.

حبستُ الدموعَ في مُقلتيّ، فتسللتْ دمعةٌ هاربةٌ إلى خدي، وباحتْ برفضي للمُدرّسة الجَّديدة، التي تابعتْ درسَها بهدوءٍ...

كان الدرس عن مدارسِ الفنّ العديدةِ، لكنّي لم أستطع التَّركيزَ معها، فرحيلُ الآنسةِ حنان شغلَ كلّ تفكيري.

عدتُ إلى البيتِ أحملُ الخيبةَ، فلاحظتْ أمّي صمتي بعد الغداءِ، ودخلتْ معي إلى غرفتي، شغلّتْ موسيقانا المفضلة، وقالتْ وهي تداعبُ شعري:

كيف كان يومكَ يا زَين؟

وقبل أن تكملَ جملتَها انهمرتْ دموعي، فحضنتني كما تفعلُ يومياً، وربتتْ على رأسي دون أن تنطقَ بكلمةٍ، بعد دقائق وجدتُ نفسي أُخبرُها عن رحيلِ الآنسةِ حنان، والمُدرسةِ الجَّديدة التي بدأتْ دروسَها بطريقةٍ مختلفةٍ...

ابتسمتْ أمي بهدوئها المعتادِ، وقالتْ:

يا صغيري، في الحياةِ يرحلُ أشخاصٌ، ويأتي آخرون، لا يمكننا أن نحتفظَ دوماً بجميعِ من نحب، ولكن نحتفظَ بذكرياتٍ جميلةٍ معهم.

لا تتسرع في الحكمِ على الآخرين، فمن يعلمُ! قد تكون الآنسةُ ريم لطيفةً أيضاً، وتمنحكم أفكاراً جديدة، وفرصةً لمعرضك. ثُّم مسحتْ دموعي وقبلتني، فشعرت بانزياحِ صخرةٍ من فوق صدري بعد عناقٍ طويلٍ، لم أرغبْ أن أحررها منه.

ساقُ بيلا

كانَ على أمّي إيصالي إلى المدرسةِ اليوم سيراً، لأنَّ أبي لديهِ مناوبة ليلية، إذ اضطرَّ إلى عملٍ إضافيّ، ليوفّرَ حاجياتِ الأسرةِ، ولا يمكنهُ العودةُ باكراً في الصَّباحِ كي يقلّني بالسَّيارةِ.

أمسكتْ أمّي الكُرسي، وانطلقنا نشقُّ طريقنا إلى المدرسةِ.

لا يوجدُ أسطحٌ منحدرةٌ في الطّرقاتِ، تساعدني على تحريكِ الكرسي من الشَّارع إلى الرَّصيفِ أو العكس...

كان من الصَّعبِ السَّيرُ في الطَّريقِ، خاصةً أنَّ قطَّتي كانت في حضني، فزادتْ من ثقلِ الكُرسي.

بينما حاولتْ أمّي رفعَ الكُرسي الثَّقيلِ قليلاً كي نصعدَ إلى الرَّصيفِ، وضعتُ بيلا على الأرضِ، لتمشيَ بجواري، وأُخففَ الحملَ، ولكنْ ماهي إلا لحظات، حتَّى نفضتْ فروها الملون، وقفزتْ من جديدٍ، عائدةً إلى حضني.

وفجأةً انقلبَ الكرسي، فتمسكتُ به جيداً كي لا أطيرَ خارجَه، وانزلقتْ بيلا، فعلِقتْ ساقُها تحتَ عجلتِه.

صرختُ مرعوباً: ماماااااااااااا!

وأمّي تُنادي: أرجو أن تكونَ بخيرٍ يا زَين!!

ساعدها بعضُ المارةِ على إعادةِ الكرسي إلى وضعهِ، وأُصبتُ أنا ببعضِ الخُدوشِ، الّتي منعتني من الذَّهابِ إلى المدرسةِ.

وكُسِرتْ ساق بيلا، وهي في الجَّبيرةِ الآن، وراحَ قلبي يعتصرُ مع كلّ مواءٍ لها، ولكن بفضلِ سقوطنا حصلتُ على يومِ عطلةٍ إضافيّ.

انتظرتنا المساعدةُ رنا صباحاً، أمامَ المدرسةِ كالعادةِ، فلم نظهرْ.

كانتْ رنا تُمضي الوقتَ في باحةِ المدرسةِ، وغرفةِ المُدرسين أثناءَ الدُّروسِ، وتُساعدني على تحريكِ الكرسي إلى الباحةِ، وتناولِ طعامي في فترةِ الاستراحةِ...

وجود رنا كان ضرورياً، إذ ليسَ من العدلِ أن يحملَ أصدقائي عبءَ مساعدتي، فالمدارسُ هنا غير مجهزةٍ بوسائلٍ خاصة، وتقنياتٍ تُسهلُ علينا يومنا، فهي ليستْ مناسبةً لجميعِ الأطفالِ...

رنا لطيفةٌ جداً، لكنّني أتمنى التَّحررَ من عبءِ شخصٍ يُرافقني طيلةَ أيامي في المدرسةِ، أريدُ العيشَ بحريّة.

واليوم، أخبرتني خُدوشي بعدَ سقوطِ الكرسي

أنَّ الوقتَ مازالَ مبكراً لأتخذَ هذا القرار.

أمضتْ بيلا الليلةَ تأنُّ منَ الألمِ، ولم أنمْ أنا جيداً أيضاً، فأمضيتُ ليلتي أرسمها والجبيرةُ تحضنُ ساقها في سلّتها المصنوعةِ من القشّ الذَّهبيّ اللّون.

العطلةُ الاسبوعيةُ

مضى يومان على سقوطنا، استيقظتُ صباحاً على صوتِ بيلا، ومازالَ النَّعسُ يغلبُ جفوني.

نظرتُ إلى المرآة، فأضحكني شكلُ خصلاتِ شعري البنيَّةِ، المُتطايرةِ كأوراقِ الخريفِ، وبدتْ عيناي العسليتانِ، اللتان ورثتُ لونَهما من أمّي، متعبتين وأصغرَ حجماً.

سألتُ مرآتي:

هل سأتمكنُ من حضورِ الفيلمِ مع سامر اليوم ؟

فأطلَّ عمو حكيم برأسهِ منَ المرآة قائلاً:

لا تُضيّع الفرصةَ يا زَين، أنا بانتظاركم إنَّه فيلمٌ مميزٌ...

هززتُ رأسي ضاحكاً، ونظرتُ إلى ساعتي:

مازالَ الوقتُ مبكراً، سآخذُ قسطاً من الرَّاحةِ.

عمو حكيم صديقُ والدي، يكتبُ الشّعرَ للأطفالِ، ويعشقُ السّينما، افتتحَ في مكتبهِ الصَّغيرِ قربَ منزلهِ سينما يرتادُها أغلبُ أطفالِ البلدةِ...

ذهبنا أنا وسامر لمشاهدةِ الفيلمِ، دخلنا غرفةً مظلمةً، وأخذنا موقعنا مقابل حائطٍ أبيضٍ تماماً، وبدأ عمو حكيم يعرضُ الفيلمَ باستخدامِ جهازِ العرضِ الضَّوئي...

كان الفيلمُ كرتونياً، يتحدثُ عن قصَّةِ حياةِ روزا باركس (عام 1955)، تلكَ المرأة ذات البشرةِ السوداء، الّتي رفضتْ طلبَ سائقِ الحافلةِ بالتّخلي عن مقعدها إلى راكبٍ أبيضِ البشرة...

وفي صغرها، كانتِ الحافلاتُ المدرسيّةُ تنقلُ فقط الطُّلابَ البيضَ، في حين كان على الطُّلابِ أصحابِ البشرةِ السَّوداءِ أن يذهبوا سيراً إلى المدرسةِ؛

فقالتْ باركس:

" كانتِ الحافلةُ المدرسيةُ أولَ ما جعلني أدركُ وجودَ عالمٍ أبيض وعالمٍ أسود".

شعرتُ بشبهٍ كبيرٍ بين حياتي وحياةِ روزا، وكأنَّني عشتُ تماماً تلكَ المشاعرَ، التي عانتْها نتيجةَ التمييزِ العُنصري تجاهَ بشرتِها الملوّنةِ!!

فأنا أيضاً أعيشُ في بلدٍ لا تحترمُ حقوقَ جميعِ الناس، فلا تتوفرُ أيُّ وسائلٍ لمساعدتنا على صعوبةِ الحياةِ هنا؛ لا أماكن خاصة لنا في المصاعدِ والمواقفِ، ولا في الحافلاتِ!

لا توجدُ ممراتٌ مائلةٌ على المداخل والأرصفة تخففُ علينا عبءَ السُّقوطِ، والمدارسُ غير مجهزةٍ لاستقبالنا.

فكَّرتُ دوماً بمن لا يستطيعونَ الرُّؤية أو السَّمعَ، كيف يتدبرونَ أمورَهم خاصةً عند عبورِ الشَّارع!

أنهينا الفيلمَ، وكان ممتعاً حقاً، أُعجبتُ كثيراً بروزا، فهي شجاعةٌ جداً؛ ناضلتْ من أجلِ تحقيقِ العدالةِ والمساواةِ بين جميعِ النَّاس...

خرجتُ من الفيلمِ، سعيداً بنشوةِ الانتصارِ على الظُّلمِ، كأنَّني أنا راكبُ الحافلةِ ذو البشرةِ السَّوداء!

فأنا أيضاً أعلم ما هي حقوقي كإنسانٍ، ولن أتخلّى عنها أبداً.

نظرتُ إلى ساعتي فبدا الزَّمنُ سريعاً جداً هنا، مرَّ الوقتُ دونَ أن أشعرَ به...

الجَّوربُ الضَّائعُ

أيقظني صوتُ سلمى، يملأُ المنزلَ صراخاً، بحثاً عن فردةِ جوربِها كالعادةِ؛ فضحكتُ كثيراً عندما سمعتُها، وتخيلتُ الجورب ينادي:

أينَ توأمي؟ أينَ اختفى؟

هل ابتلعتْهُ الغسَّالةُ أم أكلتْهُ بيلا؟

حدَّثتُ قطَّتي ضاحكاً:

هذه المشكلةُ يُعاني منها الجَّميعُ؛ فردةُ الجَّوربِ الضَّائعةِ، أين تذهبُ؟ لا أحدَ يعلمُ!

فماءتْ بيلا وأظنُّها ضحكتْ معي أيضاً.

سلمى ترقصُ الباليه بمهارةٍ، وحاولتْ سابقاً تعليمي الرَّقصَ بالكرسي، فقالتْ:

يمكنكَ أن تدورَ، وتُحرّكَ ذراعيكَ ورأسَكَ يميناً ويساراً، ثمَّ تتوقف بالفراملِ، لكنْ تدويرُ الكُرسي كانَ صعباً بعض الشَّيءِ، فاكتفيتُ بتحريكِ ذراعيّ ورأسي.

تُغنّي سلمى وترقصُ الباليه أغلبَ الوقتِ، لكنَّها تتوقفُ عن فعلِ أيّ شيءٍ عندما تفقدُ فردةَ جوربها! كأنَّه محرّكُ الدّيزل الذي يُحرّكُها.

استمرتْ تتذمرُ لدقائقَ:

ما أصعبَ هذه الحياة!

أنا لستُ سعيدةً، لا أحبُّ الخريفَ!

ولن أذهبَ إلى المدرسةِ، قد أقعُ في أيّ لحظةٍ، إنَّه فصلُ السقوطِ.

لم أستطع منعَ نفسي من الضَّحك عالياً، فسمعتْ سلمى صوتي وجاءتْ مُسرعةً إلي، أخبرتني الخطوطُ بين حاجبيها المعقودين نحو الأسفلِ عن غضبها.

فضمَّتْ شفتيها واحمرَّ وجهُها...

وقالتْ: ما المضحكُ في الموضوعِ يا زَين؟

حبستُ ضحكتي وأجبتها:

يبدو أنَّني وبيلا سقطنا مع أوراقِ الخريفِ!

هل تعتقدين ستزهرُ ساقُها في الرَّبيعِ؟

أو ربَّما ستنمو لها ساقٌ جديدةٌ؟

ابتسمتْ سلمى، ولمعتْ عيناها واتسعتْ حدقتُهما،

ثمَّ انفجرتْ ضاحكةً وقالت:

ما أجملكَ زَين!

أحبُّكَ كثيراً يا أخي، كيف يُمكنك اضحاكي دائماً!

تابعتُ ضاحكاً:

إنَّه الخريف! أين نظارتك الملوَّنة يا سلمى؟

أجابتْ:

معكَ حق...

وأسرعتْ تستعدُّ للذَّهابِ إلى المدرسةِ ومعها

تلك النَّظارة المزيَّنة بألوانِ الخريف التي تعشقها...

استعدَّيتُ أنا أيضاً للذهابِ كما في كلّ يومٍ.

وهناك بينما كنتُ أكتبُ الأسئلةَ، لم أستطع إخفاء ابتسامتي وأنا أتذكرُ جوربَ أختي الضَّائع ونظارتها الملوَّنة...

معرضٌ عبر الزَّمن

أخبرنا انحدارُ الشَّمسِ نحو الغربِ بموعدِ درسِ الموسيقى مع الأستاذِ وليد؛ فحملتُ عودي في حضني، ورافقني فادي يدفعُ الكُرسيَ إلى بيت الموسيقى القريبِ.

بيتٌ دافئٌ، تتدلى آلاتٌ موسيقيةٌ متنوّعةٌ على جدرانهِ الملوَّنةِ، وهناك في زاويتهِ رَسمٌ لشجرةٍ مُزْهرةٍ، يُحلّق حولها عندليبٌ وحسون، لم أُتقن العزفَ مثل فادي لكنَّني أمضيتُ وقتاً ممتعاً برفقة الموسيقا...

لم نجدْ الأستاذَ وليد اليوم؛ أخبرونا عن تأجيلِ الدَّرسِ للأسبوعِ القادمِ، لظرفٍ خاصٍ منعهُ منَ القدومِ.

قالَ فادي:

ما رأيكَ بزيارةِ معرضِ " تطوُّرِ الآلياتِ عبرَ الزَّمنِ " في ساحةِ البلدةِ؟

شردتُ قليلاً، وأجبتُهُ متردداً:

لكن كيفَ سأركبُ الحافلةَ؟

لا يمكنُنا الذهابُ سيراً، إنَّها مسافةٌ بعيدةٌ جداً.

قالَ فادي:

سنركبُ الحافلةَ لا عليك يا صديقي.

ولأنّي أعشقُ الآلياتِ، أودعتُ العودَ في بيتِ الموسيقى، واتجهنا إلى موقفِ الحافلاتِ...

وهناك طلبنا من أحدِ السَّائقين مساعدةَ فادي لحملي إلى الحافلةِ، ترددَ السَّائقُ؛ فلا يوجدُ مكانٌ مُخصصٌ لكُرسي متحرك، وبدا له من الصَّعبِ حملي للأعلى، لكنَّ أحدَ راكبي الحافلةِ انتفضَ مُسرعاً لمساعدتنا!

فاقتربَ السَّائقُ عندها وحملاني مع الكُرسي بصعوبةٍ؛ ليصبحَ الكرسي الثالثَ بين اثنين في مقدمةِ الحافلةِ؛ ولَولا وجود البابِ الخلفيّ، لما استطاعَ الرُّكابُ النزولَ والصعودَ إلى الحافلةِ قبلَ نزولي.

حدَّثتُ نفسي:

آهٍ يا روزا باركس! كم ظروفنا متشابهة! أنا أيضاً لا يحسبون لي مكاناً في الحافلةِ، إنَّه تمييزٌ عنصريٌ يحتاجُ إلى ثورةٍ حقيقيةٍ...

وعندما وصلنا، ساعدوني أيضاً على النزولِ،

فنظرتُ إلى فادي قائلاً:

لن أفعلَ ذلك ثانيةً يا صديقي، ليتنا طلبنا من

والدي إيصالنا إلى المعرضِ، شعرتُ بحرجٍ شديدٍ.

أجابَ فادي باسماً:

لا عليك يا زَين، إنَّها مغامرةٌ ممتعة...

تجوَّلنا في المعرضِ، وكانَ رائعاً مدهشاً؛ عجبتُ كم

تطورت الآلاتُ عبرَ الزَّمنِ!

وحلمتُ بسيارةٍ كهربائيةٍ، تُساعدني على التَّنقلِ

بمفردي عندما أكبرُ...

وقبلَ المغادرةِ التقينا هناك بتامرٍ ابن خالتي، فأقلّنا بالسَّيارةِ إلى المنزلِ، مُستغرباً قدومي دونَ أبي.

وهناك عند بابِ الحديقةِ، وجدنا أبي ذاهباً للبحثِ عنَّا؛ فبيتُ الموسيقى قريبٌ، والدَّرسُ انتهى منذُ مدةٍ؛ واحتلَّ القلقُ قلبَ أمّي، فأمضتْ وقتاً تذرعُ الغرفةَ جيئةً وذهاباً قبل وصولنا...

لكنَّ ابتسامة والدي، وحاجبيه الّذين ارتفعا إعجاباً بشجاعتي، أزاحوا غيمةَ التَّوتر التي خشيتُها عند

إخبارهم عن مغامرتنا، بينما شحبَ وجهُ أمّي، فبدا أصفراً كاللّيمونِ، رغم أنَّها حاولتِ الابتسامَ، وطلبا منّي إخبارهم سابقاً قبلَ الذَّهاب في المرةِ القادمةِ...

صاحبُ الإرادة القويّ

اليوم ذهبنا جميعُنا، طلابُ الصَّف مع الآنسةِ ريم لزيارةِ تيماء، صديقتنا في الصَّفِ، وتهنئتها بالشّفاءِ، بعد أن أجرتْ عمليةَ زرعِ كليةٍ، وتغيَّبتْ لأسابيعٍ عنِ المدرسةِ.

كانت تيماءُ عازفةَ غيتارٍ ماهرةً، بأصابع رقيقة وعينين لوزيتين. لم نعلمْ سابقاً أنَّها تغسلُ كليتيها بشكلٍ دوري، فالابتسامةُ والغيتارُ لا يفارقانها أبداً.

عندما أخبرتنا الآنسةُ عن الزّيارةِ، ترددتُ في البدايةِ، فمن سيدفعُ الكُرسي؟ ومن سيحمله إلى الحافلةِ؟

لكن لحسنِ حظّي، كان بيتُ تيماء قريباً من المدرسةِ،

فذهبنا سيراً على الأقدامِ والعجلاتِ؛ وتبادلَ أصدقائي الأدوارَ في تحريكِ الكُرسي.

عند بابِ البيتِ، الذي بدا كباب غابةِ العجائبِ؛ حيثُ تسلقتْ نبتةٌ دائمةُ الخضرةِ، زاهيةُ اللّونِ جدرانَ المنزلِ كلَّه، وتوزعت النباتاتُ في كلّ مكانٍ حولنا، استقبلتنا تيماءُ بابتسامتها المعتادةِ، رغم أنَّها بدتْ شاحبةً نحيلةً.

وهناك في الداخل، تدلّى من السَّقفِ أصيصُ نباتٍ، أوراقُه متعددةُ الألوانِ، محمولٌ بأرجوحةٍ من الصُّوفِ الملوَّنِ، واحتلَّ الغيتارُ الأرجوانيُّ قلبَ الجَّدارِ المقابلِ للبابِ...

اتفقَ بعضُ الأصدقاءِ على مساعدةِ تيماءَ في الدّروسِ، لتعويضِ ما فاتَها.

وبعدَ مغادرتنا، قالتِ الآنسةُ ريمُ وهي تنظرُ إليَّ كأنَّها تقصدُني بكلامها:

الناسُ جميعاً ذوي احتياجاتٍ خاصَّة، فجميعنا نعجزُ أحياناً عن فعلِ بعضِ الأشياءِ، ونبدعُ في أشياءَ أخرى، ولكنْ البعضُ هم أصحابُ إرادةٍ قويَّةٍ مثلَ تيماء.

هكذا سماني أصدقائي سامرُ وفادي، وقد بذلتُ جهداً كبيراً في النّقاشِ والإقناعِ لمدةِ أسبوعٍ، حتَّى حللتُ مُشكلتهم، وعدنا كما كنَّا، أصدقاءً ثلاثة نتشاركُ لحظاتٍ جميلةً.

بعد عودتي، بدتْ بيلا حزينةً جداً، بسببِ بقائها وحيدةً في السَّلةِ، حادثتُها:

تحتاجينَ لكرسي متحرك مثلي يا بيلا، مسكينةٌ يا صديقتي، ستبقينَ أسيرةَ الجَّبيرةِ وسلةِ القشّ لفترةٍ طويلةٍ.

بدأتْ علاقتي بالكُرسي تتحسنُ، خاصةً بعد كسرِ ساقِ قطَّتي، شعرتُ بأهميتهِ، وكم كانت حياتي ستكونُ صعبةً دونه!

فهو الصَّديقُ الذي ساعدني على التَّنقلِ لسنواتٍ، لأعيشَ حياتي كشخصٍ طبيعيّ؛ وبمساعدتهِ لن أتخلى عن أيّ هدفٍ أرغبُ في تحقيقه.

فكرتُ: ماذا لو استطعتُ المشي ؟

ما الذي سيتغيرُ في حياتي؟

ربَّما أُصبحُ لاعبَ كرةِ قدمٍ شهيرٍ، ثمَّ تداركتُ باسماً:

لكنْ حينها لن أجدَ الوقتَ الكافي للرَّسمِ والموسيقى!

رفعتُ عينيَّ إلى نافذتي المفتوحةِ، فشاهدتُ صديقي اللّقلقَ الأبيضَ، في رحلةِ هجرتهِ خريفاً إلى أماكنَ أكثرَ دفئاً، فارداً أجنحتَه البيضاءَ، تُزينُها حوافٌ سوداءُ أنيقة، راقبتُ ساقيه الطويلتينِ النحيلتين، ذاتِ اللَّونِ الوردي كلونِ منقاره، وحلّقتُ معه بينَ الغيومِ، مستمتعاً بنسيمٍ باردٍ يُداعبُ خديّ...

رحلةٌ في الحديقةِ

عبر بابِ الصَّفِ الأبيضِ، أطلَّ مازنٌ بحاجبيهِ الكثّينِ، ووجههِ العابسِ، ونظراتهِ الحادَّةِ التي تُلاحقُني باستمرارٍ، مستغلاً انشغالَ مُساعدتي لبعضِ الوقتِ، فاقتربَ منّي، ومزَّقَ دفتري ضاحكاً، ونَعتني بالعاجزِ الأبلهِ، تمالكتُ نفسي كي لا ألكمهُ على أنفهِ، وقلتُ له:

أُشفقُ عليك حقاً، فأنتَ مسكينٌ، لا تملكُ ما تفعله سوى السُّخريةِ من الآخرين.

وصلتْ رنا في اللَّحظة التي أمسكَ فيها ذراعي، محاولاً إيقاعي عن الكُرسي!

فأبعدَتْهُ ووبخَتْهُ، وأخبرَتْ مديرَ المدرسةِ فوراً.

عُوقبَ مازنُ بنقلهِ من الصَّفِ، وإخبارِ والديهِ بما فعلَ...

تناسيتُ ما حدثَ، عندما أخذَنا الأستاذُ سعيد إلى حديقةٍ مليئةٍ بالأشجارِ، وطلبَ منَّا تدوينَ ملاحظاتنا لكلّ ما نشاهدُه حولنا بعدَ التَّجول في الحديقةِ، كمشروعٍ لمادةِ التَّعبيرِ.

ولحسنِ حظّي، كانتِ الحديقةُ حديثةً، وطرقاتُها مستويةً نظيفةً، بخلافِ أغلبِ الحدائقِ، والتي كان من المُستحيلِ أن أسيرَ فيها وحدي...

أمسكتُ مُكبرتي الزَّرقاءَ، التي تختبئُ دوماً في حقيبتي، وبدأتُ بتدوينِ كلّ ما شاهدتُ من حشراتٍ

وأنواعِ نباتاتٍ وأشجارٍ، كما وصفتُ المقاعدَ واللافتاتِ المعلقة، ثمَّ جمعتها في قصّةٍ قصيرةٍ:

تحكي حياةَ يعسوبٍ فيروزيّ اللّونِ، يتنقَّلُ في الحديقةِ، فيعيشُ مغامراتٍ مع تفاصيلها؛ تخيَّلتُ نفسي أركضُ خلفهُ، وأسجّلُ كلَّ ما يُشاهدُه، وأتكلَّمُ بلسانِه.

سلَّمنا المشروعَ للأستاذِ سعيد في ختامِ الرحلةِ، فتفاجأَ بقصّتي التي تجاوزتْ توقعاتِه كما قالَ.

وفي اليومِ التَّالي، أخبرَ الجميعَ أنَّني حصلتُ على بطاقةٍ لدخولِ السينما مجاناً لمدةِ شهرين، هدية من عمو حكيم الذي عودنا أن يقدّمَ المفاجآت لأطفالِ المدرسةِ المميَّزين.

اعتدتُ مراقبةَ تفاصيلِ الطَّبيعةِ عن كثبٍ بمكبرتي الزَّرقاءِ، فكانت بوابتي إلى عوالمَ خفيةٍ، نمرُّ بجوارِها ولا نُلاحظها، حتَّى ذرَّاتُ الغبارِ المتطايرةِ في النُّورِ، لاحقتْها عدستي، فراقبتُ حركتَها الدَّائمة...

فكَّرتُ يوماً: ماذا لو كان هناك كائناتٌ مُصغَّرةٌ على الأشياءِ الصَّغيرةِ، داخلَ الأزهارِ مثلاً، تختبئُ بين البتلاتِ؟

ماذا لوكان عالمُنا ذرَّةَ غبارٍ في عالمٍ عملاقٍ مجهولٍ؟

سكنتِ الفكرةُ تفكيري، فتخيَّلتُ كائناتٍ تعيشُ حياةً كاملةً حتَّى في فراء قطَّتي، التي كانت تهربُ دوماً من المُكبرةِ.

وعندما عدتُ اليومَ من المدرسةِ، لا أعلمُ كيف خرجتْ تلك الضّحكةُ من فمي!

فوجَّهتُ الكُرسي، وانطلقتُ مباشرةً إلى بيلا، التي لم تتوقفْ عن المواءِ كأنَّها تطلبُ النجدةَ.

حملتُ مكبرتي الزَّرقاءَ وتمتمتُ:

أمَّا اليوم، فأنتِ عالقةٌ يا صغيرتي في جبيرتكِ...

حشرةٌ مخطَّطةٌ

تناولتُ غدائي وذهبتُ للقيلولةِ في سريري بمساعدةِ أمّي، غفوتُ قليلاً، وعندما استيقظتُ لم أنادِ أحداً لمساعدتي كالعادةِ.

لم أجرؤ في السابق على النُّهوضِ بمفردي، أمَّا اليوم وبعد شهرينِ من التَّدريبِ على حملِ الأثقالِ الخفيفةِ بذراعيّ، حاولتُ رفعَ نفسي عن السَّرير فسقط رأسي فوقَ الوسادةِ، وفي كلّ مرَّةٍ حاولتُ فيها النُّهوضَ تجذبه كمغناطيس.

أعدتُ المحاولةَ مراراً، حتَّى تمكَّنتُ من الجلوسِ،

وحملتُ ساقي الأولى إلى الكُرسي قُربَ السَّرير،

فتحركَ مبتعداً، لأنَّ عجلاتِه لم تكن مقفلةً، وانزلقتُ معهُ مُتدحرجاً على الأرضِ، صارخاً منَ الألمِ...

وراحتْ بيلا تموءُ في سلّتِها عاجزةً عن الحركةِ، فركضَ كلٌّ من في البيتِ إليَّ بلهفة؛ حضنتني أمّي:

هل أنتَ بخيرٍ يا زَين؟

أومأتُ برأسي أنا بخير؛ وبدأَ ألمي يخفُّ تدريجياً، كانَ ألمُ الخوفِ عندَ السُّقوطِ أكبرَ من ألمِ الرُّضوضِ، لأنَّني وقعتُ فوقَ وبرِ السّجادةِ الطّويل.

قالَ أبي: لا بأسَ يا زَين، مرَّتِ التَّجربةُ بسلامٍ،

لكنْ ما الّذي حدثَ؟

أجبتُه:

كنتُ أحاولُ مساعدةَ نفسي، هذا كلُّ ما في الأمرِ.

وتابعتُ فرحاً:

لكنّي جلستُ بمفردي لأولِ مرةٍ.

قالت أمّي:

في المرَّةِ القادمةِ، يُمكنكَ المحاولةُ ونحنُ بجوارِكَ.

وقبلَ أنْ تكملَ كلامَها، دخلَ هادي راكضاً كالصَّاروخ:

أين هي عصافيرُ رأسِك؟ هل مازالتْ تلفُّ حولَه؟

ضحكَ الجَّميعُ وأجبتُه:

العصافيرُ هربتْ، لكنْ انظر هنا نجومٌ تلفُّ حولَ رأسي وتدورُ؛ فبدأَ يلفُّ حولي باحثاً عن النُّجومِ، وغرقنا جميعاً في نوبةٍ من الضَّحكِ.

رافقَ صوتُ جرسِ البابِ ضحكتنا، وماهيَ إلا دقائقَ، حتَّى دخلَ ابنُ خالتي تامرُ، شابٌ وسيمٌ في العشرينَ من عمرِه، يزورُنا دوماً، ورغمَ فارقِ العمرِ، كنَّا نمضي معاً أوقاتاً ممتعةً.

صاحَ هادي:

هل أحضرتَ معكَ الحشرةَ المخطَّطةَ؟

أجابَه: بل أحضرتُ لكَ عسلاً لذيذاً.

قفزَ هادي فرحاً يُغنّي:

أحبُّكِ يا صانعةَ العسلِ.

أمَّا أنا فسألتُه:

ماذا لو اختفى هذا الكائنُ الصَّغيرُ؟

هل سيختفي العسلُ؟!

أجابَ تامرُ ضاحكاً:

قد تختفي النَّباتاتُ والأشجارُ أيضاً، وربَّما تختفي الحياةُ على هذا الكوكبِ.

تامرُ يعملُ مع والده في تربيةِ النَّحل؛ رافقتُه إلى حديقةِ النَّحل الرَّبيعَ الماضي، فرأيتُ صناديقَ العسلِ، وحوضَ ماءٍ صغيرٍ، تطفو على سطحهِ عيدانٌ صغيرةٌ،

تقفُ عليها النَّحلاتُ وتشربُ دونَ أنْ تغرقَ، وبجوارهم حقلٌ من زهورِ الخزامى برائحتها الزَّكيةِ، التي رغبتُ بالنّومِ والاسترخاءِ بينها، وتطلُّ شتلاتُ الفريزِ وبعضُ أشجارِ التُّفاحِ من خلفِ الصَّناديقِ ليتغذَّى النَّحلُ على زهورِها.

استدركتُ متعجباً: تختفي الحياةُ!

فتابع تامرُ حديثَه:

النَّحلُ هذا الكائن الصَّغيرُ مهمٌ جداً يا زَين، فهو لا يهدينا العسلَ فقط، بل أيضاً يساهمُ في تلقيحِ النباتاتِ.

فعندما يتغذَّى على رحيقِ الزَّهرةِ، ينقلُ غبارَ الطَّلعِ منها إلى زهرةٍ أخرى، وهكذا تثمرُ الأشجارُ والنَّباتاتُ، ونحصلُ على المحاصيلِ المختلفةِ.

ودَّعَنا تامرُ بعد وقتٍ قصيرٍ. وقبلَ أن أنامَ أمسكتُ قلمي الملوَّنَ، وكتبتُ أحداثَ يومي، ورسمتُ لوحةً لنحلةٍ صغيرةٍ، مخطَّطة بالأسودِ والأصفرِ، تحملُ فوقَ جناحيها الرَّقيقين كرةَ الأرضِ الضَّخمةِ، بلونيها الأزرقِ والأخضرِ، وعندما أغمضتُ عينيَّ، تخيلتُ ذراعيَّ جناحين يحملانِ جسدي بخفةٍ نحو الكرسي.

إزالةُ الجَّبيرةِ

منذُ الصَّباحِ، وتفكيري مع بيلا، فعندما استسلمتُ للنَّومِ في سريري أمس، سمعتُ مواءَها، وقد ملَّتِ البقاءَ في الجَّبيرةِ.

شققتُ عينيَّ، ونظرتُ إليها، إذ اعتدتُ دائماً الحديثَ معها، عمَّا يُسعدني ويُحزنُني، أُحدّثُها عن أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ؛ فهي الصَّديقةُ التي تسمعُني بصمتٍ وتحفظُ أسراري.

منذ كُسرتْ ساقُها وعانتِ الألمَ، تغيرتْ ملامحُها، ضاقتْ عيونُها، وتهدَّلَ فمها للأسفلِ، وانقبضتْ أذناها، وأصبحَ مواءُها حزيناً، تشيحُ برأسِها بعيداً عنّي، وتخبّئُهُ داخلَ سلّتِها...

سابقاً كانت تركضُ إليَّ عندَ عودتي من المدرسةِ، وتحكُّ جسدَها بساقَيّ، ثمَّ تُحدّقُ بي، فنبدأُ بتحريكِ رأسينا معاً بنفسِ الاتجاهِ، لتقفزَ بعدها إلى حضني، كي أداعبَ فروها الملوَّن.

أمّي تعتني بها جيداً، ولا ينفكُّ هادي المُشاكسُ يُزعجُها، ويثيرُ غضبَها، منذُ أصبحتْ حبيسةَ الجَّبيرةِ، ثم يهربُ ضاحكاً.

سألتُ نفسي:

هل ستعودُ بيلا أيضاً لشقاوتِها كما في السَّابقِ بعدَ تحريرِ ساقِها؟

مرَّةً قفزتْ فوقَ طاولةِ الطَّعامِ؛ وأوقعتِ العصيرَ، الذي تطايرَ يميناً ويساراً، وبينما ابتعدَ الجَّميعُ عن الطَّاولةِ، خوفاً على ملابسِهم، تابعتِ القطَّةُ قفزاتِها بينَ الصُّحونِ، وبفضلِ الكُرسي ذي العجلاتِ المقفلةِ، لم يكن لديَّ خيارُ الرَّهبةِ والتَّراجعِ اللاإرادي إلى الخلفِ، كما حدثَ للجَّميعِ، فبقيتُ مكاني، ومددتُ ذراعيَّ مُمسكاً بالقطَّةِ، وأنقذتُ ما بقي على الطَّاولةِ.

أمّا اليوم، ذهبنا بعدَ عودتي منَ المدرسةِ إلى الطّبيبِ البيطري، حيثُ أزالَ الجَّبيرةَ بهدوءٍ، وقالَ أنَّها تحتاجُ لبعضِ الوقتِ والتَّدريبِ...

لم تستطع بيلا أن تخطوَ في البدايةِ، حاولتِ الوقوفَ فوقعتْ، وحاولتْ ثانيةً ووقعتْ؛ ذكَّرتني بهادي الصَّغيرِ، عندما بدأَ يَخطو أولى خطواتِه، ثمَّ يقعُ وينهضُ من جديدٍ، ولكنْ أخيراً مشتْ بيلا مع عرجٍ خفيفٍ.

أحضرنا لها بعضَ كراتِ الصُّوفِ الملوَّنةِ، فتدحرجتْ مع الكراتِ، وتدحرجتُ أنا معها فرِحاً فوقَ السّجادةِ.

أمسكتْ كبَّةَ الصُّوفِ وراحتْ تركضُ وتركضُ،

وأنا معلقٌ ببدايةِ الخيطِ، أركضُ خلفها في سباقٍ مع الريحِ، ثمَّ فتحتُ عينيَّ بعد أن خرجَ الخيطُ من يدي، لأجدَ نفسي مُمدداً على الأرضِ، أبحثُ عن بيلا، التي اختبأتْ مع كرتِها تحتَ السَّرير..

عيدُ ميلادي

تسربتْ أمس من غرفةِ الاستقبالِ رائحةُ الفانيلا الزَّكيةِ، لتُخبرَني بنكهةِ الكيكِ اللّذيذةِ.

تَبعْتُ الرَّائحةَ، لأجدَ الحلوى تمتدُ على طاولةٍ بلونِ الموزِ، وتتناثر الهدايا حولَ الأصيصِ المائي، الذي يحملُ نبتةً بسيقانٍ رفيعةٍ وطويلةٍ، تلتفُّ بشكلٍ حلزوني، وتُدعى (البامبو).

كانت نبتةً مختلفةً، أدهشني تميُّزُها؛ إذ يُمكنها العيشُ في الماءِ دونَ ترابٍ، بخلافِ معظمِ النَّباتاتِ.

حفلةُ عيد ميلادي كانت مفاجأةً جميلةً؛ فقدمتْ لي أمّي بدلةً بيضاءَ بحوافٍ سوداء، وربطةَ عنقٍ ورديَّة.

وقالتْ بابتسامتها الدَّافئةِ:

أظنُّكَ تحبُّ هذه الألوانَ يا زَين.

فارتديتُها سعيداً، وتمنيتُ لو أمكنني الوقوف على ساقٍ واحدةٍ كصديقي اللقلق...

وبعد دقائق وصلَ الأصدقاءُ والأقاربُ، فازدادَ عددُ الهدايا حولَ البامبو، وزينتْ كعكاتُ جدَّتي المُحلاةِ بالدّبسِ طاولةَ الطَّعام، وراحتْ بيلا تقفزُ فوقَ أريكةٍ بلونِ العِنَبِ.

بدأنا احتفالنا بالغناءِ والرَّقصِ، حملني أبي فوقَ كتفيهِ، كي أرقصَ معهم ثم حملني تامرُ؛ فكان يومنا ممتعاً.

انتهتِ الحفلةُ وغادرَ الجميعُ، انتظرتُ بفارغِ الصَّبرِ فتح الهدايا؛ لكنّي لم أجدها!

وهادي، أخي المشاكسُ الصَّغيرُ ذو الأعوامِ الخمسةِ، اختفى أيضاً!!

رُحنا جميعاً نبحثُ عنِ المفقودين، هادي والهدايا، وأخيراً وجدَتْهُ سلمى خلفَ الأريكةِ الخشبيَّةِ!

كان غارقاً في صحنِ الكيكِ اللَّذيذِ، بعد أنْ سحبَ الهدايا مُتسللاً إلى هناك، كسحليةٍ تموهتْ، مرَّ دون أنْ نلاحظه، وأتلفَ غِلفَ الهدايا، ولوَّثَ بعضَها بالقشطةِ البيضاءِ.

شعرتُ أنَّ الدّخانَ يخرجُ من رأسِي، فهذهِ الهدايا لي، لمَ يُخرّبُ أشيائي؟

نظرتُ إليهِ مُوبخاً: ماذا فعلتَ يا هادي؟

قالَ أبي: لا عليك يا زَين سنصلحُ الأمرَ.

أحضرتْ أمي له بدلةَ رائدِ فضاءٍ بيضاءَ، وما إنْ رأى هديَّتَه، حتَّى تركَ كلَّ ما في يدهِ، وأسرعَ إلى فضائه.

هادي الصَّغير الشَّقي شاهد الأسبوعَ الماضي صورةَ رائدِ فضاءٍ، مُحلِّقاً بين النَّجومِ والكواكبِ على غلافِ كتابٍ أقرأهُ، اكتشفتُ اليوم أنَّهُ أخذَ الكتابَ سراً، وخبأَهُ تحتَ وسادتِهِ.

نظَّفتْ أمّي الكِريمة، ونقلتِ الهدايا إلى الطَّاولةِ في غرفتي؛ بعضُها كان كتباً عن الفضاءِ والحيواناتِ ورحلاتٍ إلى أعماقِ البحارِ، بالإضافةِ إلى مجموعةٍ من الألعابِ اللّوحيةِ الممتعةِ.

وأحضرَ جَدّي بذورَ زهورِه الجَّميلةِ، التي جمعَها منذُ الصَّيفِ الماضي، وجفَّفها من أجلي، لنتساعدَ على زراعتها في الحديقةِ.

أمضيتُ وقتاً طويلاً أتفحصُ الهدايا، حتَّى ناداني أبي:

إنَّها الحاديةَ عشرةَ يا زَين، ألن تنامَ؟

لم أنتبه لتأخرِ الوقتِ، فالهدايا كانت جميلةً جداً.

وضعني أبي في السَّرير، وأسلمتُ رأسي لوسادتي وأحلامي.

اليوم لم أستيقظ باكراً، حتى صاحَ هادي قافزاً ببدلةِ الفضاءِ البيضاءِ فوقَ سريري:

مرحباً يا أورانوس، كيفَ حالك أيُّها الكوكبُ النائم؟

أنا هادي من كوكبِ الأرض.

أجبته وأنا أشقُّ جفنيَّ بصعوبةٍ:

أهلاً بك يا رجلَ الفضاءِ الهادئ، كدتَ تكسرُ ساقي.

ثم لعبنا معاً، ومثلنا أدوارَ الكواكبِ؛ فأمضيتُ يومَ عطلةٍ ممتعاً مع رائدِ الفضاءِ الصَّغيرِ.

يومٌ شتويٌ

كان يوماً ماطراً بارداً، غيومُه الرَّماديةُ وسماؤهُ الشَّاحبةُ تُشعرُني بالكآبةِ، جاءَ فصلُ الشّتاء يحملُ معه قلقَ الامتحاناتِ المدرسيةِ.

دخلَ أبي الغرفةَ حاملاً شرابَ الشُّوكولاتةِ اللَّذيذِ، متفائلاً كعادتهِ:

أحبُّ الشّتاءَ ومشروباتهِ السَّاخنة، أحبُّه بليلهِ الطَّويل ودفءِ حطبه.

ابتسمتُ مُحدثاً نفسي:

كيف يجدُ أبي السَّعادةَ حتَّى في أصغرِ التَّفاصيلِ!

نظرتُ إلى نافذتي، مُحاولاً مثله البحثَ عن جمالِ الشّتاءِ، سمعتُ صوتَ قطراتِ المطرِ، تعزفُ لحنَها على الزّجاجِ، اقتربتُ وشققتُ النافذة قليلاً، فتسربتْ رائحةُ المطرِ، وداعبَ الهواءُ الباردُ شعري كأنَّه يهمسُ لي:

الشتاءُ منعشٌ يا زَين.

بدتْ أوراقُ شجرِ الزَّيتونِ دائمِ الخُضرة زاهيةً، ترقصُ مع الرَّيح، بعد أن غسلتْها الأمطارُ.

أمَّا شجرةُ التّينِ الضَّخمةُ، وأشجارُ الرُّمانِ الصَّغيرةُ، رحلتْ أوراقُها مع الخريفِ، وبدتْ كأنَّها ترتجفُ من بردِ الشّتاءِ، بانتظارِ ربيعٍ يكسو أغصانَها.

جلسَ أبي قبالتي، يُراقبُ وجهي، فهو يعلمُ أنَّ امتحاني سيبدأ بعد يومينِ؛ لاحظَ توتري وقلقي قبلَ الامتحانِ، فارتشفَ قليلاً من شرابِه ...

ثم قالَ باسماً:

أتعلمُ يا زَين، نحنُ نتعلمُ لنستمتع ونكتشف أشياءَ جديدة، وفي الامتحانِ قد ننجح أو نفشل بما تسعفنا به ذاكرتنا، وأنت يا زَين تعلمُ أنَّك قادرٌ على تحقيقِ ما تريد إن صمَّمتَ على ذلك.

همستُ:

أبي على حق، لن أضيّعَ وقتي في القلقِ.

شربتُ الشُّوكولاتة اللّذيذةَ، مستمتعاً برؤيةِ قطراتِ المطرِ ترتطمُ بالزّجاجِ، وتسيلُ لتنهيَ رحلتَها في الجَّوِ، وتبدأَ رحلةً جديدةً بين أخاديدِ أرضِ الحديقةِ، والوادي المجاورِ، وتحلمَ بدفءٍ يُعيدها إلى السَّماء، سحابةً تجوبُ الأرجاء.

استنشقتُ الهواءَ عدةَ مراتٍ، بشهيقٍ عميقٍ وزفيرٍ بطيءٍ، فاتسعتْ عضلاتُ صدري، وعادتْ بعد ثوانٍ إلى مكانِها، وعُدتُ أنا أيضاً إلى مكاني، قربَ موقدِ الحطبِ الحجري، المبني من أحجارٍ نهريَّةٍ ملوَّنةٍ،

راقبتُ نيرانَه بلونيها الأصفرِ والبرتقالي، وكيف تُحوّلُ حطبةً يائسةً إلى حرارةٍ ونورٍ.

رحتُ أقلّبُ الصَّفحاتِ، بحثاً عن جملةٍ أبدأ معها دراستي، فداعبتْ رائحةُ الحطبِ المُحترقِ أنفي وتسربتْ حرارتُه إلى جسدي، مُعلنةً استسلامي الكاملِ لنومٍ لذيذٍ.

فتحتُ عينيَّ بعدَ ساعاتٍ قرب نافذةٍ يُزينها لونُ المساءِ البنفسجي، ومازالَ كتابي بينَ يديّ، يبحثُ عنّي كي أقرأه، فأسرعتُ أكملُ دروسي قبل فواتِ الأوان...

هادي والكُرسي

أخيراً انتهتِ الامتحاناتُ، وجرتِ الأمورُ أفضلَ بكثيرٍ مما توقعتُ، وبدأتِ العطلةُ النّصفيَّةُ.

وبينما كنتُ في سريري، أغوصُ بين صفحاتِ كتاب البِحارِ العميقة، أعادني صوتُ هادي إلى قممِ الجّبالِ، حين دخلَ فارداً ذراعيهِ، وانطلقَ كنسرٍ، يشقّ الفضاءَ باتجاه الكُرسي، وقبلَ أن يقفزَ إليه، ناديتُه:

توقفْ يا هادي، أحتاجُ الكُرسي، فهو ليس فريسةً أيُّها النَّسرُ.

لكنَّ هادي قفزَ في اللَّحظةِ التي حرَّكتُ فيها الكُرسي، ليتمسكَ بعجلتهِ، وينزلقا معاً على الأرضِ، الكرسي وهادي!

فكُسرَ الكُرسي، وطارتِ العجلةُ الأماميةُ الصَّغيرةُ، مُصطدمةً بحائطِ الغرفةِ، وعادتْ مرتدةً، تلفُّ وتدورُ، لتستقرَّ في حضنِ هادي، الذي مسحَ دموعَه بعد سقوطهِ، وأمسكها كمقودِ سيارةٍ، وانطلقَ يقودُ سيارتَه في أرجاءِ البيتِ.

قالتْ أمّي: حبيبي زَين، هادي لا يدركُ حاجتكَ للكُرسي، فهو يعتبرها امتيازاً لا يحظى به.

استرجعَ أبي العجلةَ من هادي، وطلبَ منه عدمَ تكرارِ ما حدثَ، ثم قالَ لي:

من الجَّيد أنَّك في عطلةٍ الآن يا زَين، فالكرسي سيحتاجُ وقتاً حتَّى يتمَّ إصلاحُه.

افتقدتُ صديقيَ ذا العجلاتِ الرَّمادية، ولم تكنْ تجربتي دونهُ سهلةً أبداً، فقلّدتُ دودةِ الربيعِ، ورحتُ أزحفُ على بطني طوالَ اليوم وهادي أيضاً راح يلعبُ ويزحف مثلي...

همستُ لنفسي:

ليتني أصنعُ شرنقتي، فأتحوَّلُ إلى فراشةٍ ملوَّنةٍ،

تُرفرفُ بحريَّةٍ في الحديقةِ.

دخلَ أبي ومعه إطارٌ للمشـي بعجلاتٍ خضراءَ، كانت تجربةً جديدةً، لم أرغبْ بخوضها كالعادةِ، لكنّي كنتُ مُرغماً، ورغم وجودِ داعمٍ للإبطين في الإطارِ، كان كلّ اعتمادي على ذراعيّ، الّذينِ دربتُهما شـهوراً بفضلِ أبي، حيثُ قالَ:

يوماً ما ستحتاجُ ذراعيك كثيراً، حاولْ تقويةَ عضلاتكِ بالأثقالِ.

أمسكتُ الإطارَ، وحاولتُ جرَّ ساقيَّ خلفي، لكنّي رجعتُ إلى الخلفِ بدل التَّقدمِ للأمامِ، حاولتُ عدةَ مرَّاتٍ، حتّى تمكَّنتُ من التَّحكّمِ بحركتي، وانطلقتُ إلى الأمام.

بدا الأمرُ صعباً جداً في البدايةِ، كتعلّمِ لغةٍ جديدةٍ لا أعرفُ حروفَها، لكنْ ما إن تخطَّيتُ الأمتارَ الأولى بسلامٍ، حتّى أصبحتِ الأمورُ أسهلَ، وبدأتْ حركتي مع الإطارِ ذي العجلاتِ الخضراءِ تتطورُ تدريجياً، وبعد فترةٍ أصبحَ الأمرُ عادياً، وممتعاً كمنْ يتزلجُ على الجَّليدِ.

وبينما كانتْ ندفُ الثَّلجِ البيضاءُ تتساقطُ بغزارةٍ، راقبتُ حركتَها المُذهلةَ فوق أشجارِ الزَّيتونِ عبر نافذتي، فرسَمَتها فُرشاتي وألواني لوحةً فنيَّةً، زينتْ جُدرانَ غرفتي.

وعندما غطَّى سوادُ اللّيل نافذتي البيضاءَ، أسلمتُ رأسي لوسادتي، وأغمضتُ عينيَّ، فرقصتُ سعيداً فوق الجَّليدِ بحذاءِ تزلجٍ مع عجلاتٍ خضراءَ، ومن بعيدٍ سمعتُ صوتاً يناديني، تلفَّتُّ حولي!

فرأيتُ الكُرسي بعجلتِه المكسورةِ، يراقبُ رقصتي وحذائي الجَّديدَ، بعينين حزينتين؛ أخبرني عن شوقهِ لي، رغم معاناته مع الطُّرقاتِ والحُفرِ، ووعدني بالعودةِ سريعاً...

توقفتُ عن الرَّقصِ، عندما شعرتُ ببردٍ شديدٍ؛ فتحتُ عينيَّ لأجدَ بعضَ ندفِ الثَّلجِ تتسللُ من شباكي المشقوقِ وتتجمعُ حول سريري، فأغلقتُ نافذتي ورسمتُ رقصتي فوق الجليد...

الفصلُ الدّراسي الثَّاني

نهضتُ صباحاً بمفردي، وأمسكتُ ساقيَّ ووضعتهما للأسفلِ، أقفلتُ العجلاتِ، ورفعتُ جسدي على ذراعيّ، فانزلقتُ إلى الكرسي بنجاحٍ، ثمَّ رفعتُ القفلَ، وتحركتُ في الغرفةِ سعيداً، وعندما فتحتُ البابَ، فوجئتُ بأمّي تقفُ أمامي، ضحكتْ وقالتْ:

طفلي الشّجاعُ، فخورةٌ بك.

اغتسلتُ وتناولتُ فَطوري...

كانت عبارةُ أبي تدورُ في رأسي:

هذه هيَ الحياةُ تحدياتٌ وتجاربٌ، نحتاجُ فقط الصَّبرَ والإرادةَ.

عدتُ بذاكرتي إلى بابِ المكتبةِ النّيلي، وعالِمِ الفيزياءِ الشَّهيرِ " ستيفن هوكينج "، حيثُ قرأتُ كتاباً عنهُ خلفَ ذلك البابِ، فقد أُصيبَ بمرضٍ عصبيّ، أفقدَهُ قدرتَهُ على الحركةِ والكلامِ تماماً، فطوَّر مهاراتٍ بصريَّةً، وتفوَّقَ على رفاقٍ بأجسادٍ سليمةً.

فكَّرتُ:

هل حقاً تُخبّئُ جميعُ الكائناتِ طاقاتٍ هائلةً داخلها، تَظهرُ في الوقت المناسب؟!

مع بدايةِ الفصلِ الثَّاني، اخترتُ الذَّهابَ إلى المدرسةِ دون المُساعدةِ رنا، فأخبرتُ أبي وأمّي:

سأتدَّبرُ أموري جيداً، أنا قادرٌ الآنَ على تحريكِ الكُرسي وإيقافهِ بسهولةٍ.

بدا أبي سعيداً جداً بقراري، بينما طغى القلقُ على ملامحِ أمّي، فأنا أعرفُها جيداً، صاحبةَ القلبِ الرَّقيق، رغمَ تشجيعِها الدائمِ، خوفُها علي لا يفارقُها.

نظرتُ إلى عينيها راجياً:

أرغبُ أن أخوضَ هذه التَّجربة، مهما تكنْ النَّتيجةُ.

فقبَّلتني وحضنتني مُشجعةً.

أوصلني أبي إلى المدرسةِ، ولأولِ مرَّةٍ لم تكنْ رنا في انتظاري...

شعرتُ أنَّني أفتقدُها، مرافقتي لسنواتٍ، والتي ساعدتْني في تجاوزِ الكثيرِ منَ العقباتِ في المدرسةِ.

ناجيتُ نفسي:

لا تبقى الأمورُ كما هيَ إلى الأبدِ، فحياتُنا تتغيَّرُ دائماً.

في الاستراحةِ الأولى بينَ الدُّروسِ، شعرتُ كمنْ فقدَ ظِلّهُ، رنا ليست هنا لتهتمَّ بي!

لكنّي تذكرت شعوري السابق بأنَّ وجودها قيدٌ عليَّ التَّحررَ منه. ومع مرورِ الوقتِ فرحتُ بفسحةِ الحريَّةِ الصَّغيرةِ التي حصلتُ عليها.

عدنا بعدَ انتهاءِ الدَّوامِ أنا وأبي، مسرعين هاربين من بردِ الشّتاءِ، وعند وصولنا ركضَ هادي إليهِ، وقفزَ كقطٍ صغيرٍ يُلاعبُ صاحبَه، فحملهُ أبي بينَ ذراعيهِ، وحلَّقَ في فضاءِ الغرفةِ وحلَّقتْ عينايَ معه.

كم تمنيتُ لو استطعتُ الرَّكضَ مثلهُ إلى حضنِ أبي، لكنّي اليومَ أصبحتُ ثقيلاً وطويلاً.

في صِغَري كان أبي يركضُ هو إليَّ ليحملَني منادياً:

تعالَ يا عصفوريَ الصَّغيرَ.

فأعجزُ عن رفعِ ساقيَّ كالطُّيورِ، التي تمدُّ سيقانَها مستقيمةً إلى الخلفِ عندَ الطَّيرانِ.

سألتُ أبي يوماً:

هل رأيتَ طائراً لا يُمكنُه التَّحكّمُ بساقيهِ.

ابتسمَ قائلاً:

رأيتُ لكلّ كائنٍ على هذه الأرضِ ميزةً تجعلهُ فريداً مختلفاً...

بدايةُ الرَّبيعِ

قُبيلَ الفجرِ بقليلٍ، أيقظتْني زقزقةُ العصافيرِ، تُغرّدُ بانسجامٍ، كأنَّها جوقةٌ تعزفُ لحناً موسيقياً، وعلتْ أصواتُها مع بزوغِ خطوطِ الفجرِ الأولى، بلونيها الأبيضِ والبنفسجي الفاتحِ، وتسربتْ رائحةُ زهورِ اللَّوزِ من شباكِ النَّافذةِ المفتوحِ قربَ السَّريرِ، معلنةً ضحكةَ الرَّبيعِ الأولى، في بيتٍ ريفيٍ جميلٍ، فاكتستْ أشجارُ اللَّوزِ بلونٍ أبيضٍ.

رفعتُ رأسي مُطلاً على حديقةِ جَدّي، فرأيتُه هناك قربَ عريشةِ العنبِ، بقوامهِ المنتصبِ؛ لم تغلبْهُ السَّنواتُ، بفضلِ عملهِ الدَّائمِ في الأرضِ، والمشي اليومي كلَّ صباحٍ.

تدلتْ خصلاتُ شعرٍ بيضاءُ رقيقة فوقَ جبينهِ المُتعرّقِ، وأخاديدٌ دقيقة بدأتْ تخطُّ طريقها في وجههِ الصّلبِ كصخورِ أرضهِ.

كان جدي مُنهمكاً في توزيعِ أغصانِ داليةِ العنبِ، فوقَ عريشةٍ معدنيةٍ، نصبَها قربَ المدخلِ، لتحملَ أغصاناً مازالتْ أوراقُها تنمو على مهلٍ مع نسائمِ الرَّبيعِ الأولى.

أعدتُ رأسي إلى الوسادةِ، فمازالَ الوقت باكراً.

وهناكَ تحتَ العريشةِ، رأيتُ نفسي أرتفعُ على رؤوسِ أصابعي، لأقطفَ عناقيدَ العنبِ المتدليَّةَ، واستمتعتُ بطعمِها اللَّذيذِ؛ أخبرتُ جَدّي:

أصبحتُ طويلاً يا جَدّي، يدي تطالُ العناقيدَ، ألم تلحظْ ذلك؟

فسمعته يهمسُ:

لم أركَ منتصباً على قدميك من قبل يا بُني!

أين كرسيّك؟

لم أكترثْ لسؤالِه، وحملتُ الدَّلوَ الأصفرَ ذا المِرشةِ الطَّويلةِ، ورويتُ زهورَ الحديقةِ...

فانتشتْ بقطراتِ الماءِ ورودٌ جوريَّةٌ تتسلقُ السُّورَ، تُسابقها ياسمينةٌ على جدرانِ المنزلِ، وبينما احتلَّ الأقحوانُ الأبيضُ زوايا المدخلِ، تناثرتْ أزهارُ زنبق ملوَّنةٌ في كلّ الأرجاءِ، وانتصبَ النَّرجسُ متباهياً وسطَ الحديقةِ، ظاناً أنَّه الأجملُ بين الزُّهورِ.

أعادني صوتُ جَدَّتي إلى السَّريرِ حينَ قَرَعتِ البابَ، تدعوني لتناولِ الحليبِ مع الكعكِ المُحلى على الشُّرفةِ.

ذاك الصَّوتُ الدَّافئُ الذي اعتدتُ سماعَهُ في صغري، عندما كانتْ تروي لنا أنا وسلمى قصَّةً مسائيَّةً قربَ موقدِ الحطبِ.

تذكرتُ ثرثرتي الشَّقيَّةَ بعدَ كلّ قصَّةٍ، وأسئلتي التي لم تنتهِ.

مَنحتِ الحياةُ جَدَّتي قلباً صافياً ومازالتْ خُطوطُ الزَّمنِ تُحاولُ جاهدةً أنْ تجدَ طريقاً إلى وجهِها الرَّقيقِ دونَ جَدوى.

هناك على الشُّرفةِ، حدَّثني جَدّي عن مُتعةِ عملهِ كمهندسٍ زراعيٍ، فهو يعملُ مع النباتاتِ ولأجلها، وأينما ذهبَ نشاهدُ زهوراً وألواناً.

ومنذُ بدايةِ الفصلِ الثَّاني، راحَ يكَّررُ زياراتهِ إلى المدرسةِ للاطمئنانِ عليّ.

دفعَ جدّي الكُرسي، ومشينا معاً فوقَ ممراتٍ حجريّةٍ، صنعها بنفسهِ بينَ الأشجارِ، فسمعتُ خلفَ الأغصانِ ضحكاتٍ مختبئةً؛ ضحكاتِ سلمى والأطفالِ، عندما كانوا يتسلقونَ أشجارَ الحديقةِ، ويعلّقونَ أرجلهم بينَ الأغصانِ، فتتدلى رؤوسُهم كالخفافيشِ، وصوتُ جَدّي يحذرُهم من السّقوطِ...

لكنّي لم أجدْ ضِحكتي بينها !

كانت هناكَ؛ ضحكةٌ تُشبهني، اختبأتْ حيثُ اعتادَ جَدّي أن يحملَني لأجلسَ على حافةِ النَّافذةِ الخارجيةِ...

كنتُ أراقبُهم يلعبونَ ويقفزونَ وأضعُ الحبوبَ للعصافيرِ والحمامِ، وأتسلَّى بنثرِ بذورِ الهندباءِ ذاتِ المظلةِ البيضاءِ، فأُرسلُها مع الرَّياحِ في رحلةٍ لمئاتِ الأمتارِ، فتنغرسُ في التّربةِ، لتعودَ إلى الحياةِ من جديدٍ مع زهورٍ صفراءَ كقرصِ الشَّمسِ.

أمضيتُ اللّيلةَ الثَّانيةَ في بيتِ جَدّي، في عطلةِ المدرسةِ الأسبوعيةِ، وقبلَ أن أخلدَ للنّومِ، تمسكتُ ببذرةِ هندباءٍ عملاقةٍ، فحملتني في رحلةٍ فوقَ المُروجِ الخضراءِ...

مَسرحيةُ الظِّلالِ

رأسي فوقَ الوسادةِ، وعيناياَ مُعلقتانِ بسحابةٍ صغيرةٍ بيضاءَ في سماءِ الصَّباحِ الصَّافيةِ، يتغيّرُ شكلُها مع كلّ حركةٍ لها، وكأنَّها تؤدي رقصةً جميلةً. تخيَّلتُ نفسي غيمةً، أُغيّرُ شكلي كيفما أشاء، وأسافرُ في كلّ الأرجاء؛ لكنّي فقدتُ ظلّي، فليسَ للغيومِ ظلالٌ تُميزُها في السَّماء.

سمعتُ صوتاً يُحدثني:

هل أنتَ بخيرٍ يا زَين؟

فاجأتني أمّي، تضعُ يدَها على شعري، وقد كلَّمتْني عدةَ مرَّاتٍ ولم أسمعْها.

أجبتُها :

اليوم لديَّ بروفةٌ لمسرحيةِ خيالِ الظّلِ، التي سأقدّمُها في معرضي بعدَ أسبوعٍ، وهذه أولُ مرةٍ أعرضُ فيها مسرحيةً أمامَ الآخرينَ، فسألَتْني :

هل تشعرُ بالقلقِ والخوفِ قليلاً ؟

أجبتُها: ربَّما.

فقالتْ: ما أسوأ شيءٍ قد يحدثُ؟

أجبتُها: أنْ أتلعثم، أو تقع الظّلالُ!

قالتْ: وماذا بعدُ؟

أجبتُها: سيضحكُ الجَّميعُ على فشلي.

فقالتْ:

إنْ ضَحكوا لأيّ سببٍ كان، اضحك معَهم، فأنتَ استطعتَ رسمَ الضِّحكةِ على وجوهِهم.

ثم تابعتْ: ما هو أفضلُ شيءٍ تتوقع حدوثه؟

أجبتُها: أن أعرضَ المسرحيةَ بنجاحٍ.

فتابعتْ:

وسوف تَعرضُها بنجاحٍ أيضاً في المعرضِ قربَ لوحاتِكَ الجميلةِ يا زَين.

صخرةٌ ثقيلةٌ انزاحتْ عن صدري، فحضَنْتُ أمّي، واستعدَّيتُ للذهابِ إلى مدرستِي.

دخلتِ الآنسةُ ريمُ في حصَّة الرَّسمِ، متحمسةً لمشاهدةِ المّسرحيةِ.

بدأتُ عرضي:

" بلدةٌ للظّلالِ، تعيشُ فيها ظِلالٌ طويلةٌ وأخرى قصيرة، ظلالٌ نحيفةٌ وأخرى سمينة، ظلالٌ صغيرةٌ وأخرى كبيرة، لكنَّها متشابهةٌ ومتآلفةٌ. وفجأةً ظهرَ بينهم شكلٌ واحدٌ مميزٌ، لا يشبهُ الآخرينَ، فابتعدتْ عنه جميعُ الظّلالِ؛ باستثناءِ ظلٍ صغيرٍ مرحٍ، اقتربَ منه، وقفزَ إليه، وراحَ يلعبُ معه، ملأتْ ضحكاتُهم الأرجاءَ، فأثارتْ فضولَ جميعِ الظّلالِ، وتساءلوا:

من هذا الكائنُ الغريبُ؟

حاولوا الاقترابَ والتَّعرفَ عليه، ليكتشفوا حينَها أنَّه ظِلٌّ مثلّهم تماماً، لكنَّهُ مميزٌ جداً فهو ظِلٌّ على عجلات "

صفقتِ الآنسةُ كثيراً، ووقفَ رفاقي أيضاً يُصفقونَ، أمَّا أنا فحبستُ دمعتي مُبتسماً سعيداً...

تعلقتُ بالظّلالِ منذُ صغري، أراقبُها كيفَ تطولُ وتقصر، تصغرُ وتكبر، حسبَ التَّوقيتِ ومكانِ الإضاءةِ.

وبطلُ مَسرحيتي كان ظِلّي، الذي رافقني في رحلتي، فأنا لم أشاهدْ يوماً ظلَّ ساقيّ، فظلّي دوماً كان على عجلاتٍ، متفرداً مُميزاً مثلي...

بيت الموسيقى

خلفَ أشجارٍ ملوَّنةٍ، ظهرَ بيتُ الموسيقى، وأطلَّ الأستاذُ وليد مُرحباً، سألني باستغرابٍ:

أينَ كُرسيَّك يا زَين؟

وكأنَّني لم أسمع سؤالَه، فبدأتُ عزفي، طِرتُ وحلَّقت عالياً، كلقلقٍ في رحلةِ هجرتِه إلى مكانٍ دافئٍ جميلٍ، ثم اختفيتُ خلفَ كراتِ الصُّوفِ، الَّتي راحتْ تتدحرجُ في المكانِ مع الألحانِ.

دخلتْ أمّي الغُرفةَ، تحملُ وسادةً جديدةً محشوةً بالقُطنِ، فأيقظتني، وأعادتني من بينِ كراتِ الصُّوفِ الملوَّنةِ إلى حقولِ القُطنِ الثَّلجية...

ورغم أنَّ وسادةَ القطنِ مريحةٌ أكثرَ للنَّومِ، لم أرغبْ بتبديل وسادتي الصُّوفيةِ، هديَّة جدّتي منذُ سنواتٍ؛ فاحتفظتُ بها صندوقاً لذكرياتي، تُخبّئُ بين خيطانِها أجملَ أحلامي.

غادرتُ سريري كالعادةِ، وقدَّمتُ وسادةَ القطنِ هديَّةً لسلمى، ثمَّ انطلقتُ إلى مدرستي بحماسةٍ كبيرةٍ لرؤيةِ أصدقائي.

وفي المساءِ الطَّويلِ، حيثُ بدأَ النَّهارُ يسرقُ بعضاً من ساعاتِ اللّيلِ، حملتُ عودي، وذهبتُ مع أبي إلى بيتِ الموسيقى.

كان شارداً طوالَ الطَّريقِ، حتَّى أنّي حاولتُ فتحَ حديثٍ معه ولم يسمعني!

وقد ازدادَ اهتمامُه هو وأمّي في الآونةِ الأخيرةِ بمتابعةِ الأخبارِ على الإنترنتِ، وبدتْ سلمى تتأثرُ أيضاً بما يحدثُ.

ورغمَ أنَّهم كانوا دائماً يخوضونَ نقاشاتٍ كثيرةً حولَ أوضاعِ البلدِ، رفضوا إقحامنا في تلكَ المواضيعِ؛ فكانت أمي تقولُ عِشْ طفولَتك يا صغيري، العبْ وتعلَّم واترُك باقي الأمور لنا...

هناك في بيتِ الموسيقى، التقيتُ فرحَ صديقتي الرَّشيقةَ، عازفةَ البيانو، ذاتِ العينين البُنيتين والصَّوتِ الجَّميلِ...

حدَّثتني يوماً عن رغبتها الدَّائمةِ بأن تَعزفَ وتُغنّي في وقتٍ واحدٍ، لكنَّها لا تجرؤُ على الوقوفِ أمامَ الآخرينَ لِتُغنّي، لأنَّها خجولةٌ جداً، فقالتْ:

أتعرفُ يا زَين! أنتَ محظوظٌ بجرأتكِ وقوتكِ، فأنتَ قادرٌ على التَّعبيرِ عن نفسكَ بمواهبَ عديدةٍ، بينما أعجزُ أنا عنْ غناءِ أغنيتي، فتتبعثرُ الكلماتُ ويختفي الصَّوتُ من حنجرتي.

فقلتُ لها:

تحدّي نفسكَ وخجلكَ يا فرح، البلبلُ لا يخشى الغناءَ، وأنتِ موهوبةٌ حقاً ولا يوجدُ مستحيلٌ.

بالنسبةِ لي تجاوزتُ الكثيرَ منَ العقباتِ بالإصرارِ، ولن أسمحَ لشيءٍ أن يؤخرَ أو يعيقَ أحلامي.

فوعدتْني بأنْ تُغنّي قريباً مع ألحانِ البيانو.

أمَّا اليوم، بدتْ فرحُ مرتبكةً، تعجزُ عن التَّركيزِ!

وقالتْ بصوتٍ مرتجفٍ:

جيرانٌ جددٌ انتقلوا إلى حارتِنا، قادمونَ من مناطقَ أخرى هرباً من ظروفٍ يصعبُ التعايشُ معها.

هل تعرفُ ما يحدثُ يا زَين ؟

أجبتها:

أمورٌ كثيرةٌ تحدثُ، أشعرُ بوجودها ولكنّي لا أدركُ بالضَّبط ما يجري حولَنا!

ثمَّ عدنا إلى موسيقانا، وعزفنا ألحاناً وأنغاما، بعيداً عمَّا يحدثُ حولنا، حلَّقنا ننشدُ حباً وسلاما...

لن أصبحَ خلداً

قفزَ قلبي، ومازالَ جسدي ممدداً فوقَ السَّريرِ، مرتعباً من تلكَ الأصواتِ، التي بدتْ كأنَّها نيازكُ تخترقُ جدرانَ الغرفةِ، لم أعدْ أقوى على التَّنفسِ، دفنتُ رأسي في وسادتي، وأغمضتُ عينيَّ وصمَمْتُ أذنيَّ، كي لا أسمعَ تلكَ الأصوات ثانيةً.

لكنّي سمعتُ صوتَ هادي يبكي، وسلمى تُنادي أمّي بفزعٍ، اجتمعنا كلُّنا في غرفةِ الجُلوسِ، وكانتِ الشَّمسُ مازالتْ ترسلُ خيوطَها الأولى.

حاولَ أبي الابتسامَ كي نتغلبَ على خوفنا، وراحتْ أمّي تروي لنا القصصَ، لتُنسينا الأصواتَ الّتي تسللتْ إلينا من البلداتِ المجاورةِ، فنحنُ مازلنا هنا بأمانٍ.

سألَ هادي: هل هي مفرقعاتُ العيدِ، وستحملُ لنا هدايا وألوان؟!

غصَّتْ أمّي وحبستْ دمعتَها، فأجابَهُ أبي:

من الجَّيد يا صغيري أنَّها لنْ تزورَنا الآن، فالعيدُ هنا مازال بعيداً.

بعد ساعةٍ، تلاشتْ الأصواتُ، وعادتِ الأمورُ إلى طبيعتِها، فاستعدينا للذهابِ إلى المدرسةِ كالعادة.

وهناكَ كانَ الجميعُ يتحدثون عن تلكَ الأصوات، التي أيقظتْهم قبيلَ الفجرِ، وكانتْ أعدادُ الطُّلابِ في تزايدٍ مستمرٍ، فعددُ العائلاتِ التي تنتقلُ إلى بلدتنا يزدادُ يومياً.

حدَّثنا زميلنا الجديدُ أحمد عن حربٍ دمرتْ منازلَهم ومدارسَهم، وسرقتْ ألعابَهم وكتبَهم، فهربوا لا يعلمونَ إلى أينْ، حتَّى أوصلتهم الطُّرقاتُ إلى بلدتِنا.

أمَّا تيمُ، فأخبرنا أنَّهم اختبأوا في ملجأٍ خوفاً من الحربِ، وتعاونوا جميعاً فكتبوا واجباتهم المدرسيةَ تحتَ الأرضِ، وصنعوا ألعابَهم من بقايا أشياءٍ جمعوها هناك، وحين يتوقفُ القصفُ يعودون إلى منازلِهم.

وكانَ الملجأ عبارة عن غرفةٍ صغيرةٍ، حفرَها أحدُ أقاربِ تيم تحتَ منزله، لتكونَ ملاذاً لهم، وتابع قائلاً:

بعدَ مدةٍ أصبحتُ كالخلدُ، الذي اعتادَ الحياةَ هناك، فأمضيت وأصدقائي بعض الأوقات الممتعة رغم كل شيء.

عدتُ إلى البيت متأثراً بما سمعتُ من رفاقي في المدرسةِ.

ولم أفهم ما ذنبُنا نحنُ الأطفالّ في كل ما يحدث!

فتحتْ أمّي بابَ الغرفةِ، فوجدتني أمامَ المرآةِ، أحاولُ بعصبيةٍ تصفيفَ خصلةِ شعرٍ تبدو مزعجةً، وتقفزُ فوقَ عَيني كلَّما أعدتُها إلى مكانِها...

فقالتْ:

لا بأسَ يا زَين، يُمكنكَ أن تقصَّ شعرَكَ غداً.

سألتُها:

هل سأضطرُ للعيشِ يوماً تحتَ الأرضِ، فأتحوَّلُ إلى خلدٍ نسيَ ضوءَ الشَّمسِ وألوانَ قوسِ المطر؟

عندها جمعتنا أمّي، وروتْ لنا الكثيرَ من القصصِ المُسليَّةِ، لتُنسينا أجواءَ الحربِ التي بدأتْ تتسربُ إلى بلدتنا.

غفوتُ على صوتِها العذب، وصعدتُ ظهرَ صديقي اللَّقلقِ محلقاً في السَّماءِ، واعداً إيَّاهُ بأنْ لا أتركُه وحيداً في سمائهِ، فلنْ أُصبحَ خلداً يختبئُ في أغوارِ الأرضِ.

قرارُ الرَّحيلِ

مُغمض العينين فوقَ وسادتي الصُّوفيةِ، لا أرغبُ بفتحهما فأعودُ إلى واقعٍ لم أعد أدركُ ما يَجري فيه!

حملتُ سلَّةً مصنوعةً من الصُّوفِ، مليئةً بالطَّعامِ، وسلَّةً أخرى في يدي الثَّانية، تُطلُّ منها دفاترُ وأقلامُ، وكأرنبٍ سريعٍ تتالتْ قفزاتي بينَ الأطفالِ، أوزّعُ حمولةَ سلَّتيَّ سعيداً مبتسماً، فتعلو الضّحكاتُ من حولي.

بعد أن فرِغَت السّلالُ، نظرتُ إلى ساعتي فبدا الوقتُ متأخراً جداً، وعليَّ العودةُ، تبعتُ خيوطَ الصُّوفِ الممتدة نحوَ وسادتي قافزاً أشقُّ طريقي بفرحٍ...

فتحتُ عينيَّ مُجبراً عندما سمعتُ صوتاً يهزُّ النّوافذَ والجُّدرانَ، وهادي يبكي مذعوراً، دفنتُ رأسي في الوسادةِ، فجاءَ أبي مسرعاً إليَّ، واجتمعنا كالعادةِ في غرفةٍ واحدةٍ، نحضنُ بعضنا حتَّى توقفتِ الأصواتُ القادمةُ من بعيدٍ، والتّي بدتْ كأنَّها في حارتنا.

قالَ أبي:

كانت آمالُنا كبيرةً بالتغيير للأفضل، ولم نتوقع حرباً تُضيّعُ أيامنا وتَسرقُ أحلامَنا؛ لم يعد بإمكاننا البقاءُ هنا، علينا الرَّحيلُ قبلَ وصولِ الحربِ إلينا، سأرتّبُ أمورَ رحيلنا بعدَ انتهاءِ الفصلِ الدِّراسي.

فالحربُ قرعتِ الأبوابَ في بلدِنا منذ سنواتٍ في مناطقَ عدَّة، واليوم أصبحتْ قريبةً جداً منَّا...

وبعضُ الذين وصلوا مؤخراً إلى بلدتنا، خرجوا من بيوتِهم لا يحملونَ معهم شيئاً، ويعجزونَ عن شراءِ حاجياتِهم الأساسيَّةِ، بما فيها الحقيبة والأدوات المدرسيَّةِ لأطفالِهم.

اتفقنا في المدرسةِ أنْ نجمعَ مبلغاً من مُدخراتنا، ونشتري كلَّ ما يحتاجُه هؤلاءُ الأطفالُ، وهكذا تعاونَّا جميعاً مع المدرسين، ووفَّرْنا جميعَ حاجياتِهم المدرسيّةِ، فرقصَ قلبي مع كلّ بسمةٍ عَلَت وجوهَهم.

وشكَّلَ أهالي الحيّ مجموعاتٍ لتوزيعِ مساعداتٍ غذائيةٍ للأُسرِ المُحتاجةِ، وبعضُ الصَّيدلياتِ والمراكزِ الطّبيةِ وفَّرت علاجاً وأدويةً مجانيَّةً للمرضى؛ فأدركنا كم كنَّا جميعاً في هذهِ البلدةِ أسرةً كبيرةً متعاونةً وصامدة.

رتبَ أبي أمورَ الرَّحيلِ بمساعدةِ صديقٍ له يعيشُ في الخارجِ. وقال:

علينا السَّفرُ خلالَ أسابيعٍ، فلا نعرفُ ما ستؤولُ إليه الأمورُ.

أدركتُ أنَّني السَّببُ الأولُ لقرارِ الرَّحيلِ، فلن تكونَ الأمورُ هنا سهلةً عليَّ من الآنِ فصاعداً.

سألتُه: وماذا عن باقي أحبائِنا، سنتركُهم هنا؟

أجابَ أبي:

لا خَيارَ أمامَنا، وربَّما هناك عندما نصلُ بسلامةٍ، تتوفرُ لديكَ خياراتٌ كثيرةٌ للدّراسةِ والتَّنقلِ، وتسهيلاتٌ أكثرُ من هنا.

لم تُشجعْني كلُّ هذه الأفكارِ على تقبُلِ فكرةِ الرَّحيلِ، فلا أرغبُ حقاً بذلك، لكنَّ الحربَ تسرقُ طفولَتنا،

وسنتركُ بلادنا والكثيرَ من الذكرياتِ، ونرحلُ علَّنا ننقذُ ما بقي من أحلامِنا...

قالَ أبي:

سنعودُ يوماً بعد انتهاءِ الحربِ، لنُشاركَ في بناءِ بلدنا من جديدٍ، ولن نتركَها إلى الأبد...

الوداعُ

انتهى الفصلُ الدّراسيُّ، وكان خَبرُ رحيلي صادماً لجميعِ الأصدقاءِ، وخاصةً سامر وفادي وفرح، تعاهدنا على إيجادِ طريقةٍ للتواصلِ، ومعرفةِ أخبارِ بعضنا...

ودَّعتُهم ولم أزلْ غيرَ مصدقٍ لما يحدثُ:

هل حقاً سنرحلُ ونتركُ كلَّ تلكَ الذكرياتِ هنا؟

بدأ والدايّ بترتيبِ الأولوياتِ، وما الذي يُمكنُ أخذُه معنا وما الذي سنتركُه هنا، فرحلتُنا شاقةٌ، طويلةٌ، ولن يرافقَنا سوى بعضِ الأشياءِ الضَّروريةِ.

حدَّثتُ قلبي: وماذا عن بيلا، قطَّتي الجَّميلة!

لن أتركَها هنا!

قال أبي: لا يملك كثيرٌ من الناس جوازات سفر في بلدنا، فما بالكَ بالحيواناتِ!

فكَّرتُ: سأخبئُها في الحقيبةِ الخضراءِ، وأحملُها على كتفي.

لكنْ ماذا لو ماءتْ أثناءَ رحلتِنا؟

هل سيرمونَها من الطَّائرةِ؟

هل سأمنعُ من متابعةِ الرِّحلةِ؟

استسلمتُ في النّهايةِ، حينَ قالتْ أمّي:

سنُودِعُها عندَ جَدّكَ وجَدّتكَ.

لم أنمْ هذه اللّيلة، بقيتُ ساهراً أكلّمُ بيلا:

سأفتقدُكِ كثيراً يا بيلا، أعدكُ سأعودُ يوماً لأداعبَ فروك الناعم، وأرويَ لكِ أحداثَ رحلَتي، سأعود لأستمتعَ باستقبالكِ اليوميّ وتلكَ القفزةِ الفريدةِ إلى حضني.

نظرتُ حولي:

غُرفتي التي احتضنتني لسنوات، ألن أراها ثانيةً !

وِسادتي صديقتي في كلّ الأوقاتِ، كيفَ سأتخلَّى عنها؟

حاولتُ إقناع أمّي أن آخذ الوسادةَ معي، فأخبرتْني أنَّه أمرٌ صعبٌ جداً.

حديقتُنا وأشجارُ الزَّيتونِ الخضراءُ، من سيعتَني بهم؟

وشجرةُ التّينِ الضخمةُ التي حملتْني مراتٍ ومرات، عندما كانَ أبي يرفعُني عالياً لأجلسَ على أغصانِها الملساء، ستبقى وحيدةً الآنَ، وقد تطاولَت تلكَ الأغصانُ وامتدت في كلّ الاتجاهات، لتصنعَ لنا في الرَّبيع بأوراقها الكثيفة بقعةَ ظلٍ كبيرةً...

كانتْ دموعي تبللُ خدَيّ، وتنهمرُ بهدوءٍ كمطرِ الرَّبيعِ، منذُ سمعتُ بخبرِ الرَّحيلِ ووداعِ كلّ أحبَّتي...

تذكرتُ بذورَ الأزهارِ التي أهداني إيَّاها جَدّي، سآخذُها معي في جيبِ مِعطفي الأزرقِ، فهي صغيرةٌ جداً ولنْ يلاحظَها أحدٌ، وضعتُها في ظرفٍ صغيرٍ، وألصقتُها بغلافِ دفترِ يومياتي، وطمأنتُها:

هنا ستبقينَ بأمانٍ.

حدَّثتُ دفتري:

أما أنتَ يا صديقي، سترافقُني في رحلتِي،

ولنْ أتخلَّى عنكَ أبداً، فأنتَ حكايتي وأسراري.

وها أنا هنا، أخطُّ بقلمي الملوَّنِ كلّ ما أتذكرُهُ من أحداثٍ، وأعدُكَ سأدونُ دوماً ما يزدحمُ في رأسي من أفكارٍ، وكلَّ ما سيحدثُ على مرِ الأيامِ...

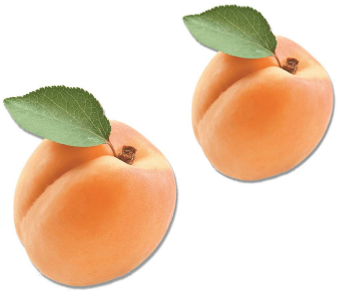

بدايةُ الصَّيفِ

فوقَ السُّورِ الحَجري، قبلَ وصولِنا إلى المدخلِ، لاحتْ ثمارُ المشمشُ من بعيدٍ، بلونَيها الأصفرِ والبُرتقالي، ولمعتْ حباتُ الكرزِ الحمراءُ بينَ الأوراقِ، مودعةً الرَّبيعَ في استقبالِ فصلِ الدّفءِ والهدوءِ، والسَّماءِ الصَّافيةِ...

دخلنا وكانا بانتظارنا، جَدّي وجَدّتي قربَ عريشةِ العنبِ، التي اكتستْ بأوراقٍ خضراءَ زاهيةٍ...

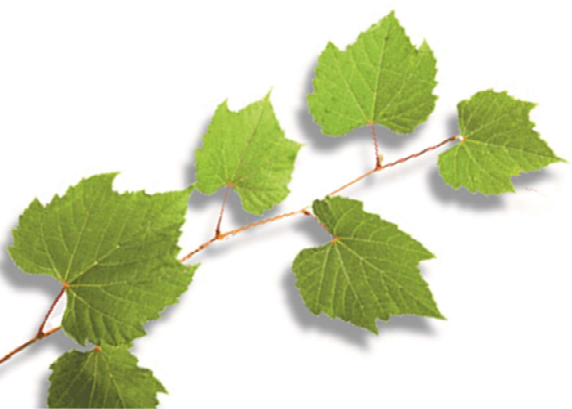

جلسنا على الشُّرفةِ كوداعٍ أخيرٍ لبيتٍ احتضنَ أجملَ لحظاتِ طفولتنا، أمسكتْ سلمى ذراعيّ الكُرسي، ومشينا نودّعُ أشجارَ الحديقةِ، وهادي يقفزُ حولنا، وبيلا في حضني.

بعدَ عدةِ أمتارٍ، رأيتُ شجرةَ اللَّوزِ، والتي سميتُها سابقاً " اللَّوزةُ العملاقةُ " عاريةَ الأغصانِ دون أوراقٍ، كما تغيَّرَ لونُ أغصانِها الكستنائيةِ فبدتْ أقربَ للّونِ الأسودِ.

ناديتُ جَدّي بلهفةٍ:

ماذا حدثَ لشجرةِ اللَّوزِ العملاقةِ يا جَدّي؟

فأجابَني: هرمتْ يا زَين، وحانَ موعدُ رحيلِها، وأصبحَ لها دورٌ آخرَ الآنَ، سنقطعُ أغصانَها لتصبحَ حطباً للشّتاءِ القادمِ.

وتابعَ ضاحكاً:

علينا أن نشكرَها على هديةِ الحطبِ، فلم يعد الوقودُ متوفراً هذه الأيام.

مرَّتْ أمامي كلُّ اللحظاتِ التي جلستُ فيها تحتَ فيئِها. ثمَّ حركَ جَدّي الكُرسيَ، واقتربنا منها، لافتاً انتباهي إلى جذعٍ صغيرٍ أخضرٍ نبتَ بجوارِها...

حيثُ قالَ:

سنعتَني بهِ دائماً لأجلكَ، وعندما تعودُ ستجدُه شجرة وارفة.

حضنتُ جَدّي وجدّتي فاختلطتْ دموعُنا والذكرياتُ.

حدَّثتُ نفسي:

هل سأراهم ثانيةً؟

ودَّعتُ بيلا أيضاً، والتي لم ترغبْ بالابتعادِ عنّي كأنَّها تعلمُ أنَّه اللّقاءُ الأخيرُ، فلحقتْ بنا إلى السَّيارةِ،

وحاولتِ الصُّعودَ معنا، لكن جدَّتي حملتْها مداعبةً رأسها، فحدَّقتْ بي، وحرَّكنا رأسينا معاً يميناً ويساراً..

لم تستطعْ بيلا القفزَ إلى حضني كالعادةِ، فلوحتُ لها ولكلِّ الذّكرياتِ الجَّميلةِ...

مساءً، من شباكِ النَّافذةِ، راقبتُ غروبَ الشَّمسِ خلفَ الجبالِ، واللَّون القُرمزي يُزيّنُ المغيبَ.

فتساءلتُ:

هل يتشابهُ شروقُ الشَّمسِ ومغيبها في كلّ الأماكنِ؟

أم تختلفُ الألوان باختلافِ البلدان؟

لم أستطعْ النومَ، فتعلقتْ عيناىَ بسماءِ اللَّيلِ المُزيَّنة بالنُّجومِ، وإطلالةِ القمرِ الذي بدا لي دوماً وجهاً ضاحكاً، لِأعلمَ فيما بعد أنَّها ليستْ إلا حفراً فوق سطحِ القمر التُّرابي، ترسمُ وجهَهُ الجَّميل...

يومُ الرَّحيلِ

حزَمنا أمتعتَنا، وكانتِ المرحلةُ الأولى من رحلتِنا براً إلى بلدٍ مجاورٍ، استغرقتِ الرّحلةُ ساعاتٍ بالسَّيارةِ حتّى تجاوزنا الحدودَ بسلامٍ.

وهناك توجَّهنا إلى المطارِ، الذي لم يكنْ أبداً صديقاً للكُرسي، رغمَ وجودِ السَّلالمِ المُتحركةِ والمَصاعدِ، لكنْ كما العادة، لا توجدُ تسهيلاتٌ كثيرةٌ لنا، فتعبتُ مع صديقي الكرسي...

عندَ التَّفتيشِ والمرورِ داخلَ جهازِ الفحصِ الأمنّي، حملَني أبي ودخلنا معاً دونَ الكُرسي...

وبينما كنَّا نعبرُه أصدرَ صوتاً مُزعجاً، فأعادَنا إلى الخلفِ، ليقومَ موظفُ الأمنِ بتفتيشٍ يدويٍ لنا نحنُ الاثنينِ، فلم يجدْ شيئاً.

عبرنا ثانيةً، فعادَ الصوتُ من جديدٍ، وموظفُ الأمن يُحدّقُ بنا، مُتسائلاً عنِ السَّببِ!

فجأةً تذكرتُ القطعةَ المعدنيةَ الصَّغيرةَ التي تحملُ صورةَ لقلقٍ، أهداني إيَّاها أصدقائي كتذكارٍ قبلَ الرَّحيلِ، فخبأتُها تحتَ قميصي الدَّاخلي كي لا تضيعَ، وعندما أخرجتُها توقفَ الجّهازُ عن الصَّفيرِ، مانحاً لنا تذكرةَ العبورِ.

نظرَ إليَّ موظفُ الأمنِ تلكَ النَّظرة الحادة، فرفعتُ حاجبي الأيسرَ معتقداً أنَّه سينفجرُ في وجهي غاضباً، لكنَّهُ لم ينطقْ وانفجرَ ضاحكاً، وضحكتُ أنا أيضاً.

أمَّا الكُرسي، فتعرَّضَ لفحصٍ مُنفردٍ، ولأنَّه يُمنعُ استخدامُه أثناءِ الرّحلةِ، قامَ والدي بفكّهِ ووضعناهُ معَ الحقائبِ.

حملني أبي عبرَ بوابةِ الصُّعودِ إلى الطَّائرةِ، سألتُه فورَ جلوسي قربَ النَّافذةِ:

كيفَ يمكنُ لهذا الجّسمِ الضّخمِ التَّحليقُ رغمَ الجاذبيةِ؟

فبينما كانَ يثبّتُ حزامَ الأمانِ، شرحَ لي دورَ المُحركِ والهواءِ في تحريك الطائرة...

جلستْ أمّي قِبالتي، وبجوارها هادي الذي لم يستطعْ البقاءَ جالساً، فتدخلتِ المضيفةُ لتقنعَهُ بضرورةِ وضعِ الحزامِ لحينِ انطلاقِ الطَّائرةِ...

أمَّا سلمى فوضعتِ الحزامَ وأغمضتْ عينيها قُربي، وبعد أنْ وضعَ الجَّميعُ أحزمتَهم، بدأتِ الطَّائرةُ تتحركُ مع صوتِ الكابتنِ.

أُصبتُ بدوارٍ مع انطلاقةِ الطَّائرةِ الأولى؛ اختبرتُ هذا الشَّعورَ سابقاً لحظةَ تحركِ المصعدِ.

ثم ارتفعتْ الطائرةُ لتستقرَّ في الفضاءِ وتسيرَ بكلّ هدوءٍ. راقبتُ الغيومَ من النَّافذة، وأخيراً زرتُ فضاءَ صديقي اللّقلق، وتخيّلتُ نفسي أحلّقُ قربَ سربِ اللَّقالقِ المهاجرة.

ورأيتُ قلمي الملوَّنَ يَخطُّ أسرارَ رحلتي فوقَ الصَّفحاتِ البيضاءِ، فأزيّنُها برسوماتي.

كم اشتقتُ لألواني! فلم أرسمْ منذُ مُدةٍ.

عادتْ بي الذَّاكرةُ إلى مَعرضي، الذي أقمتُه في البلدةِ بإشرافِ الآنسةِ ريم، والعددِ الكبيرِ من الزُّوارِ، ورسوماتِ الطَّبيعةِ والطُّيورِ ومسرحيةِ الظّلالِ.

نظرتُ من زجاجِ النَّافذةِ للأسفلِ، فشاهدتُ بلدي كم تبدو صغيرةً من بعيدٍ وتصغرُ وتبتعدُ، لكنَّ مكانها في قلبي لنْ يصغرَ أبداً، ولنْ ترحلَ الذّكريات.

أسلمتُ رأسي لكُرسي الطَّائرةِ وغفوتُ، فأيقظتني أمّي بعدَ ساعاتٍ لأجدَ الطَّائرةَ على أرضِ المطارِ.

حملني والدي وعبرنا خارجَها كمن يعبرُ عبرَ ثقبِ الزَّمنِ.

شعرتُ بالغُربة منذُ اللّحظاتِ الأولى، وفكَّرتُ بأبي وأمّي الذين أمضيا حياتَهم في بلدِهم، والآن سيبدؤونَ من جديدٍ...

في البلدِ الغريبِ

مشينا غرباءَ في بلدٍ لا نعرفُ عنه شيئاً، رغمَ أنَّ والديَّ حاولا القراءةَ عنهُ قبلَ رحيلِنا.

استقبلنا صديقُ والدي، وأمَّنَ لنا مكاناً للمبيتِ، ريثَما يحينُ موعدُ رحلةِ البحرِ، حيث سنسافر بالقاربِ لنصلَ إلى شواطئِ دولةٍ تستقبلُنا، نحنُ الهاربينَ من الحربِ.

أحبَّبتُ فكرةَ ركوبِ القاربِ، بينما بدتْ أمّي قلقةً كلَّما حدَّثتُ والدي عن رحلتِنا القادمةِ.

تذكرتُ رهبتي الأولى من الماءِ عندما ذهبنا إلى البحرِ الصَّيفَ الماضي:

هناك على الشَّاطئِ الرَّمليّ، تحرّرتْ قدمايَ منَ الحذاءِ، ولامستْ رمالَ الشَّاطئِ الصَّفراءَ لأولِ مرةٍ، فشعرتُ بحرارتِها ونعومتِها، مَددتُ جسدي كاملاً، وتدحرجتُ فوقها وبيلا تتدحرجُ قُربي، لكنَّها لم تقربِ الماءَ أبداً، ولم تحب السّباحةَ.

كان منظرُ البحرِ يُثيرُ الدَّهشةَ، هادئاً وأمواجهُ بطيئةً بينَ مدٍ وجزرٍ، والنسماتُ الصَّباحيةُ الباردةُ تداعبُ رمالَه...

وتتوزَّعُ قربَهُ أشجارُ اللّيمونِ برائحتِها العطرةِ فمنحتني بعضَ النَّشاطِ والطَّاقةِ،

وترمي الأمواجُ الأصدافَ قربنا

فيجمعُها هادي...

وضعني أبي قربَ المياهِ، فدغدغتْ أصابعَ قدميّ،

ولم أجرؤ على الاقترابِ أكثر.

أحضرتْ سلمى دولابَ السّباحةِ، وبترددٍ ورهبةٍ وافقتُ

أخيراً على سحبي إلى الماءِ، وأبي يمسكُ الدولابَ،

شعرتُ أنَّ قلبي سيتوقفُ، ولا يمكنُني التنفسُ.

ولا أعلمُ كيفَ طَفتْ قدماي فوقَ سطحِ الماءِ،

وتحركتُ بحريّةٍ فلا شيءَ أعاقني، ومع كلّ حركةٍ

تناثرتِ المياهُ حولي وصنعتُ أمواجاً صغيرةً.

بعدَ بضعةِ أيامٍ، تخلَّيتُ عن الدُّولابِ، وأبي لم يفارقْني. تمددتُ على ظهري فطافتْ قدمايَ فوراً، وغَطَّستُ جزءاً من أذنيّ تحتَ الماءِ، وطفوتُ فوقَ سطحهِ، كأنَّني فوقَ بساطِ الرّيحِ، لم أعدْ أشعرُ بثقلِ جَسدي، ولا برهبةِ مياهِ البَّحرِ المالحةِ.

كان يوماً كالحلمِ حقاً!

وبالاستعانةِ بمدربٍ، وبتدريبِ عضلاتِ كَتفَيَّ وصدري وظهري، تعلمتُ السّباحةَ على بطني وتحريكَ ذراعيَّ كالفراشةِ، فهي نوعُ سباحةٍ يعتمدُ على الأطرافِ العلويةِ أكثرَ من السُّفليةِ.

لم أتوقع أن أسبحَ بسهولةٍ، وأن أشقَّ مياهَ البَّحرِ بلا خوفٍ، كما لم نتوقع جميعُنا أن تُصبحَ السّباحةُ ضرورةً لكلّ شخصٍ في بلدي هجَّرتْهُ الحربُ، ولم يجدْ ملاذاً سوى مياهِ البحرِ المالحةِ، علَّها توصلُه إلى برّ النَّجاةِ.

أعادَني صوتُ أمّي، تناديني لتناولِ الطّعامِ، إلى الغرفةِ التي تأوينا الآنَ بانتظارِ موعدِ الرَّحيلِ بالقاربِ، وكنَّا محظوظينَ بمساعدةِ صديقِ والدي، فكثيرونَ غيرنا لم يجدوا سوى الخيام مأوىً لهم.

مساءً بحثتُ عن الغروبِ، فكان في جهةٍ أخرى، ولا يمكنُ لنافذةِ الغُرفةِ أنْ تَرسمَه لوحةً لصفحاتِ دفتري، فلم أكتشفْ لونَ الغروبِ في البلدِ الغريبِ.

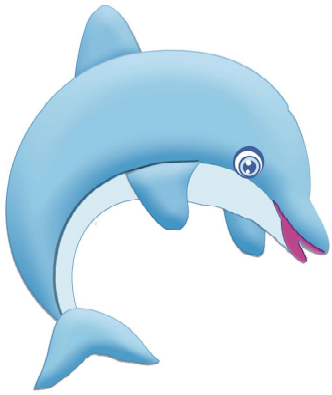

مغامرةٌ في القاربِ

فتحتُ عينيَّ باكراً قبيلَ الفجرِ،

وجلستُ على الكُرسي المتحرك،

واتجهتُ مُسرعاً باتجاه النَّافذةِ، لأراقبَ شروقَ الشَّمسِ،

لكنّي فقدتُها أيضاً، فكانت في جهةٍ أخرى، وضاعتْ

فرصةَ معرفةِ لونِ الشُّروقِ في هذا البلدِ.

أخبرتْني أمّي: أنَّ النَّافذةَ تطلُّ على الجَّنوبِ،

فمِلتُ نحوها:

بيتُنا هناك في الجَّنوبِ!

هل أمكنني رؤيتُه لو امتلكتُ منظاراً؟!

حانَ موعدُ رحيلنا عبرَ البحرِ، لم أنتبِه سابقاً أنَّها ليلَتي الأخيرة معَ صديقي ذي العجلاتِ الرَّماديةِ، فتركناهُ عندَ صديقِ والدي ليقدّمه هديةً لطفلٍ يحتاجُهُ؛ وكانَ على أبي حملي طوالّ الوقتِ، حتَّى وصلنا الشَّاطئَ.

رحلةُ القاربِ تستغرقُ ساعتينِ لنصلَ إلى جزيرةِ النَّجاةِ، وعددُ الّذين سيصعدونَ القاربَ يبدو أكبرَ ممَّا يجبُ.

فكَّرتُ: وماذا لو غرقَ القاربُ؟ ماذا سنفعلُ؟

أبي يُراقبني وكأنَّه قرأَ أفكاري، فقالَ:

جميعنا نستطيعُ السّباحةَ يا زَين، وهادي يُمكنه صعودَ ظهري لكنْ هذهِ المرَّة لنْ أكونَ حِصانَه بل دلفينَه الماهرَ، أضفْ أنَّنا سنرتدي ستراتِ نجاةٍ تحمينا منَ الغرقِ...

الآن علمتُ أهميةَ ما قالَه والدي يوماً:

تَعلُّمُ السّباحةِ ضرورةٌ للجميعِ، قد تحتاجُها في عرضِ البحرِ يوماً، فالأفضلُ أنْ تلاعبَ أمواجَه وتعرفَ كيفَ تطفو فوقَها بسلامٍ...

بدايةً تردّدَ البعضُ في السَّماحِ لنا بركوبِ القاربِ، فكيف لطفلٍ مثلي النَّجاة في هذهِ الظروفِ، لكنّي فاجأتُهم عندما أخبرتُهم أنّي أجيدُ السّباحةَ، فبعضُهم لم يسبحْ طيلةَ حياتِه، وستكونُ هذهِ المرةُ الأولى الّتي يزورُ فيها مياهَ البحرِ المالحةِ.

أمسكتْ أمّي يدَ هادي، وأمسكتْ سلمى بيدها الأخرى.

لم تكنْ تجربةً سهلةً أن تجوبَ البحرَ في قاربٍ صغيرٍ، ومكانٍ ضيّقٍ يحملُ كلَّ هذا العددِ من الرُّكابِ.

هبتْ رياحٌ أثناءَ الرَّحلةِ، فماجَ القاربُ البطيءُ بسببِ حمولتِه الزَّائدةِ، وعلتِ الأصواتُ بالصُّراخِ؛ فقرَّرَ الرُّكابُ عندها الاستغناءَ عنِ الحقائبِ، ودَّعْنا حقيبةً جلديةً خضراءَ، تحوي ملابسَ وبعضَ الحاجياتِ، ومعها رحلَ مِعطفي الأزرقُ بلونِ البحرِ والسَّماءِ.

تقاذفتِ الأمواجُ والرّياحُ قاربَنا يميناً وشمالاً، وتقاذفتْ قلوبَنا معه.

أمّي كانتْ تحضنُ هادي وسلمى وعيناها معلقتانِ بي، وأنا في أحضانِ أبي ملتصقينِ بهم.

يعلو الصُّراخُ أحياناً في القاربِ مع ارتفاعِ الأمواجِ وهبّاتِ الرّياحِ، ثمَّ يعمُّ الصَّمتُ عندما يعودُ الهدوءُ ويركدُ الموجُ؛ مغامرةٌ لا تُنسى لمدةِ ساعتينِ.

وفجأةً هدرَ البحرُ ومالَ القاربُ كثيراً، فشعرتُ بقلبي يقفزُ من بينِ ضُلوعي، وبينما كانَ يستعدُّ لرمينا في المياهِ، مرَّتْ بالجوارِ باخرةٌ تتجهُ إلى الجَّزيرةِ، فأنقذتْنا جميعاً وأوصلتْنا إلى الشَّاطئِ، ودموعُ أمّي وأبي تغمرُنا فرحاً بنجاتِنا.

وعندما نزلنا لم يعدْ أبي يقوى على حملي، فجلسنا نستريحُ على الرّمالِ بما بقيَ في قلوبِنا من رمقِ الحياةِ...

جزيرةُ النَّجاةِ

قبالةَ البحرِ، تحتَ أشعةِ الشَّمسِ الحارقةِ،

تنتصبُ خيامُ اللاجئينَ...

حصلنا على خيمةٍ قماشيَّةٍ بيضاءَ،

هناك قربَ أشجارٍ عاليةٍ كثيفةٍ، بينما تابعتْ

أمواجُ البَّحرِ الارتطامَ برمالِ الشَّاطئِ، دونَ

مبالاةٍ بكلّ ما يجري فوقَهُ.

وبما أنَّنا فقدنا أوراقَنا الثّبوتيَّةَ معِ الحقيبةِ الجلديَّةِ الخضراءِ، فلا شيءَ يُثبتُ هويَّتنا أو جنسيَّتنا لنطلبَ اللّجوءَ إلى أيّ بلدٍ، ورافقَنا الخوفُ من ترحيلنا منذُ وطِئتْ أقدامُنا تُرابَ الجَّزيرةِ.

لم تكنْ الحقيبةُ هيَ فقط ما فقدناه، بلْ هناكَ شيءٌ آخر طارَ مع قفزاتِ القاربِ، فأنا لم أستطع التَّحكمَ بساقيّ والحفاظِ عليه، إنَّه حذائي البُنيّ الذي فرَّ هارباً، طافياً مبتعداً فوق سطحِ الماءِ.

تخيلتُه عائداً إلى الجنوبِ ليجدَه طفلٌ يحتاجُه، أو ربَّما سيعومُ هائماً تائهاً في البحارِ.

تذكرتُ رغبتي السَّابقةَ بالعيشِ في الأدغالِ، دون حذاءٍ يقيّدُ قدميَّ؛ وأخيراً تحرَّرتْ قدمايَ!

مرّتِ الأيامُ في الخيمةِ سريعةً جداً، سلمى جمعتْ أوراقَ الشَّجرِ، فصنعنا منها لوحاتٍ فنيَّةً فوقَ التّرابِ، وجمعَ هادي الحجارةَ والحصى، فبنينا قلاعاً وجسوراً.

مددتُ جسدي فوقَ التُّرابِ تحتَ شجرةٍ طويلةٍ، فسمعتُ أصواتاً تناديني، تلفَّتُ حولي: منْ هناك؟

وخلفَ جذعِ الشَّجرةِ، أطلَّ فادي مع عودِه، وتبعَهُ سامي يحملُ كتاباً، ثم قفزتْ فرحُ تُغنّي أغنيتَها المفضَّلة.

وقفتُ على قدميَّ حافياً فوقَ الترابِ السَّاخنِ،

وسألتُهم مُستغرباً: كيفَ وصلتُم هنا؟ متى جئتُم؟

لم يجيبوا، بل انطلقوا راكضينَ فرحينَ بينَ الأشجارِ، ركضتُ خلفَهم أناديهم، فاختفوا فجأةً...

فتحتُ عينيَّ، وكانتِ الشَّمسُ تُلَّوحُ من بعيدٍ،

مودعةً يومنا لتشرقَ في نهارٍ جديد.

راقبتُ يومياً شروقَ الشَّمسِ وغروبَها في الجَّزيرةِ، فبدتْ ألوانُها باهتةً مبعثرةً، فقدتْ تناغُمها.

خاطبتُها معاتباً:

حتَّى أنتِ أيَّتها الشَّمسُ غيَّرتِ عاداتِك!

هل حقاً تختلفُ ألوانُ شروقِكِ وغروبِك باختلافِ الأماكنِ؟!

بعدَ أسبوعينِ على الجَّزيرةِ، طلبَ شخصٌ من منظمةٍ تعتني بشؤونِ اللاجئين رؤيةَ والدي؛ انتظرناه جميعنا عندَ بابِ الخيمةِ، نخمّنُ ما سببَ الدَّعوةِ.

كانت تلكَ الحقيبةُ الجلدية الخضراءُ، التي اعتقدنا أنَّها ضاعتْ للأبدِ عندما رميناها في البحرِ؛ رفضتْ مغادرتَنا، وسبحتْ بشجاعةٍ حتّى وصلتْ جزءاً آخر من الجَّزيرةِ...

فعثرَ عليها صيادٌ يعشقُ البحارَ، حيثُ علِقتْ في شِباكِهِ، وظنَّ أنَّها كنزٌ لا يقدَّرُ بثمنٍ؛ وعندما فتحها متحمساً، وجدَ داخلها بعضَ الملابسِ والأوراقِ،

فجَرَّ خيبتَه واتَّصلَ بالمنظمةِ، وأرسلَ لهم الحقيبةَ.

فاجأنا أبي عائداً والضّحكةُ تسبقُه:

عاد كنزُنا، عاد كنزنا!

فهي حقاً كانت كنزاً حقيقياً بالنسبةِ لنا،

بإمكاننا الآن تقديمَ أوراقِ اللُّجوءِ.

ومع الحقيبةِ عادَ مِعطفي الأزرقُ، ودفترُ ذكرياتي مختبئٌ في جيبهِ؛ وخلفَ غلافه مازالتْ تلك البذورُ الجافةُ الصَّغيرةُ تختبئُ غيرَ مرئيةٍ...

وها أنا أدونُ الآن مغامرتَنا عبرَ البحرِ والجَّزيرةِ، وأحكي قصَّتنا لصديقي ذي الغلافِ السَّماوي فيسمعُني ولا يملُّ.

فأرُ الرّيفِ وفأرُ المدينةِ

أخيراً وصلنا إلى بلدِ اللّجوءِ، وحصلنا على مكانٍ للإقامةِ؛ كانت غرفة بنافذةٍ واحدةٍ، إطارُها ملّونٌ، يُزينُه أصيصٌ من زهورِ البنفسجِ الأرجوانيةِ والزَّرقاءِ والبيضاءِ، تُطلُّ مباشرةً على الشَّارعِ، دون حديقةٍ خاصةٍ وأشجارٍ نستمتعُ بفيئِها.

لكن اكتستِ المدينةُ بكل الألوان بفضلِ أشجارِ الحدائقِ العامةِ وزهورها...

استيقظتُ ليلاً على صوتٍ مُزعجٍ، اعتقدتُ أنَّ هادي يأكلُ المقرمشاتِ!!

نظرتُ حولي فرأيتُه مازالَ يَغطُّ في نومٍ عميقٍ وحدقتيه تتحركانِ تحتَ جفنين مُغمضينِ، هادي يحلمُ كالعادةِ!!!

بحثتُ عن صاحبِ ذاك الصوتِ، فرأيتُه هناك في زاويةِ الغرفةِ، كائناً بُنيَّاً، بذيلٍ رفيعٍ طويلٍ يقضمُ الحقيبةَ.

صرختُ عالياً : باباااااااااا!

فقفزَ أبي مُنتصباً كرجلٍ آليٍ تلقى أمراً بالانطلاقِ، صارخاً: ما الأمرُ؟

أشرتُ: ذاك الكائنُ هناك!

لكنَّه فرَّ هارباً، واختبأَ قبلَ أنْ يراهُ، فبحثَ عنه حتَّى وجدَه تحتَ السَّريرِ؛ فأراً بُنيَّاً سميناً جائعاً يبحثُ عن طعام.

كانتْ تلك المرةُ الأولى الّتي أشاهدُ فيها فأراً حقيقياً، ولوهلةٍ تَضخّمَ تحتَ السَّرير وبدأ يُلاحقني كأنَّني في فيلمِ رعبٍ حقيقي، والجميعُ ما زالوا نياماً.

وما لبثَ أنْ عادَ إلى حجمهِ الطَّبيعي عندما حضنتني أمّي، فعدتُ إلى فراشي ضاحكاً.

قالَ أبي:

يجبُ إخراجُه بسرعةٍ قبلَ أنْ يُحضرَ رفاقَه؛ الفئرانُ في المُدنِ الكبيرةِ تغزو المنازلَ، أما في الرّيفِ فتعيشُ غالباً في الحقولِ...

تذكرتُ قصَّة فأرِ المدينةِ وفأرِ الرّيفِ، وفكَّرتُ:

أنا مثلُ فأرِ الرّيف، لم أحب المدينةَ وضجيجَها، أتمنى العودةَ إلى الرّيفِ ببساطتهِ وحقولهِ وهوائهِ النَّقي، اشتقتُ لغُرفتي، لقطتي، لأصدقائي، لجَدّي وجَدّتي، لصداقةِ الطَّبيعةِ وأشجارِ الحديقةِ، لرفقةِ العصافيرِ تُنشدُ سِمفونيةَ الصَّباحِ.

أحضرتْ أمّي بعضَ الفلفلِ الأحمر، ورشَّتهُ قربَ السَّريرِ، فهربَ الفأرُ من رائحتِه مُسرعاً خارجَ المنزلِ؛ وأصبحَ الفلفلُ منذُ ذلك اليوم سلاحَنا الفتاكَ لطردِ القوارضِ والحشراتِ.

تتمتَّعُ الحيواناتُ بكثيرٍ من الحقوقِ في هذه البلاد، حيثُ يُمنعُ إيذاؤُها، وتحصلُ على لقاحاتٍ خاصةٍ، وأغذيةٍ متنوعةٍ مُعلبةٍ.

حتَّى الحشراتُ تملكُ حقوقاً!

تساءلتُ: هل علينا حقاً احترام حقّ الحشراتِ في الحياةِ ونحنُ لم نعدْ نملكُ حقَّ الحياةِ في بلدنا؟

فكرتُ بقطَّتي بيلا: ماذا لو كانت معي وخيَّرتُها؟

أظنُّها كفأرِ الرّيفِ ستهربُ عائدةً إلى سلَّتِها القشيّةِ؛ فرغمَ كلّ تسهيلاتِ الحياةِ هنا أحنُّ إلى حياتِنا وذكرياتنا هناك، الآنَ علينا أنْ نبدأَ من جديدٍ، كطفلٍ يَحبو ليكتشفَ كلّ شيءٍ حولَه.

فيروس كورونا

بعد مدةٍ حصلتُ من منظمةِ شؤونِ اللاجئينَ على كُرسيٍ متحركٍ جديدٍ بعجلاتٍ بُنيَّة، لا يشبهُ صديقي القديم، لكنَّه سيخففُ عنّي مشقَّة أسابيعٍ عانيتُها دونَ كرسي.

ومنذ لحظةِ وصولنا إلى بلدِ اللُّجوءِ، أجرينا فحوصاتٍ طبيةً للتَّأكدِ من سلامتنا، وبعد فترة فُرضَ الحجرُ الصّحيُّ على الجَّميعِ واستمرَ عدةَ أسابيعٍ...

لا يُمكنُنا خلالها مغادرةُ المنزلِ إلا للضَّرورةِ القصوى، ويُمنع التَّجمعُ لأكثرِ من خمسةِ أشخاصٍ، وعلينا ارتداءُ الكمامةِ في الأماكنِ العامةِ.

كلّ ذلكَ كانَ بسببِ كائنٍ صغيرٍ مجهريّ، استطاعَ فَرضَ وجودِه على هذهِ الأرضِ، فاجتاحَ العالمَ.

ولكنْ هناك في بلادِ الحربِ، لا يكترثُ النَّاسُ للكائناتِ المجهريَّةِ رغمَ خطورتها.

فكَّرتُ بجَدّي وجَدّتي، فالخوفُ الأكبرُ كانَ على المسنين...

واحترتُ:

هل وصل فيروس كورونا إليهم؟

وأيُّهما أخطرُ كورونا أم الحربُ؟

معركتان مختلفتان، على النَّاسِ هناك خوضهما معاً.

تواصلنا معهم وعلِمنا أخبارَهم، رغم كلّ الظروف، قالوا أنَّهم مازالوا بخيرٍ برفقةِ الطَّبيعةِ والطّيورِ، وبيلا تُعيدُ لهم ذكرياتِنا هناك.

قالتْ جَدّتي:

" بيلا من رائحةِ الأحبابِ "

أخبرنا جَدّي عن حمامةٍ، بنتْ عشَّها على نافذةِ غرفتي، ووضعتْ بيضَها فيه، ورقدتْ فوقَه، حتَّى أطلَّ صيصانُها برؤوسِهم وأفواهِهم المفتوحةِ، ومازالتْ تغيبُ لتعودَ بطعامٍ يَسدُّ جوعَهم.

يخشى جدي لحظةَ انطلاقِهم في الهواءِ، مغرّدين بعيداً عن عشّهم، لأنَّه سيفتقدُهم كما يشتاقُ لنا...

لم يكن الحجْرُ بالأمرِ السَّـهلِ، فجميعنا في غرفةٍ واحدةٍ؛ حاولَ أبي وأمّي تخفيفَ حالةِ التَّوترِ في الغرفةِ قدرَ الإمكانِ، حيثُ رافقنا أحياناً بعضُ الخوفِ من هذا الفيروسِ الغامضِ، وفي أوقاتٍ أخرى احترنا ماذا نفعلُ ! فأصابنا الملُ داخلَ غرفةٍ أصبحتْ كالقفصِ المفتوحِ.

لكنْ مع الوقت أصبحتْ هذه التجربة هديةً رائعة؛ فكانت الانترنتُ نافذتَنا إلى العالمِ، تعرَّفنا من خلالها على ثقافاتٍ عدة، وقرأنا الكثيرَ من القصصِ.

واليوم دوى صوتي عالياً، عندما حَجرتُ ملكَ سلمى في زاويةِ رقعةِ الشَّطرنجِ: " كش ملك ".

أمَّا هادي هذهِ المرَّة، كان دائمَ الشَّكوى، ولم ترقْه لعبةُ الشَّطرنجِ الشَّيقةُ التي شغلتْنا عنه.

تبادلتُ الرَّسائلَ مع أصدقائي عبرَ البريدِ الإلكتروني، وأخبرتُهم عن مغامراتنا في البحرِ والجَّزيرةِ، وأخبروني عن أوضاعِهم هناك التي تزدادُ سوءاً.

سامر وفرح سافروا أيضاً وكلٌّ منهم في قارةٍ مختلفةٍ الآن.

تخيلتُنا نحنُ الأطفالَ، الذين فرقتْنا الحروبُ في كلّ بقاعِ الأرضِ، نُغنّي أغنيةً تُشبهُنا؛ رسالةً نُرسلها مع غيمةٍ كبيرةٍ، تجوبُ العالمَ، وتحملُ أصواتَنا معها إلى الأشجارِ والغاباتِ، وهناك حين تتراقصُ الريحُ بين أعوادِ القصبِ، تُحولها إلى نايات، ترددُ أغنيتَنا في كلِّ زمانٍ ومكان...

روبوتٌ في منزلنا

عبرَ النَّافذةِ ذاتِ الإطارِ المُلوَّنِ، ورائحةِ البنفسجِ، قفزتْ بيلا إلى حضني، وهيَ تموءُ وتداعبُ وجهي؛ لم أصدقْ عينيَّ:

بيلا أنتِ هنا يا صديقتي.

أمسكتْ كرةَ الصُّوفِ الملوَّنةِ، وراحتْ تركضُ وتتدحرجُ في الغرفةِ، وتكرُّ الكُبّةَ، وأنا أمسكُ طرفَ الخيطِ الصُّوفي، وأركضُ خلفها، حتَّى تعثّرتُ ووقعتُ، لأجدَ نفسي ما زلتُ نائماً فوق السّجادةِ الموشَّحةِ كجذعِ شجرةٍ، عندما أيقظني هادي، وراحَ يُكلّمُني ببطءٍ، ويكرّرُ المقاطعَ عاجزاً عن إكمالِ الجُّملةِ، كروبوتٍ آلي مضحكٍ.

لم أفهم أيّ كلمةٍ، وانفجرتُ ضاحكاً: ما بكَ يا هادي؟

ورحتُ أقلدُه، وأُحدّثُ نفسي:

دارتْ عقاربُ السَّاعةِ إلى الوراءِ، وعادَ هادي صغيراً لا يعرفُ الكلامَ!

في تلكَ اللحظة صَغُرتْ عيناهُ، وأغرقَ شلالٌ منَ الدُّموعِ وجنتيهِ، وأصبحَ فمُه كإشارةِ اللانهاية.

فأشارتْ لي أمّي منْ خلفِه أن أصمتَ؛ شعرتُ بالذَّنبِ لِضحكتي تلك، وحضنتُه قائلاً:

آسفٌ يا هادي.

أخبرتنا أمّي أنَّها استشارتْ طبيباً من أجل هادي...

فقال الطبيب:

إنَّ هادي يتعرضُ لضغطٍ كبيرٍ، بسببِ تغييرِ المكانِ، والظروف التي نمرُّ بها، وعلينا فقط التعامل معه بهدوءٍ، وعدم الضَّغطِ عليهِ، ليستعيدَ قدرتَه على نطقِ الحروفِ بشكلٍ صحيحٍ.

رُحنا نلعبُ معاً لعبةَ الرُّوبوتاتِ، ونتحدثُ ببطءٍ مثلها، وأنا أزحفُ على الأرضِ كسلحفاةٍ بطيئةٍ، لأرسمَ ابتسامةً على وجهِه الحزينِ، فكيف لطفلٍ في عمره أن يفهمَ سببَ رحيلنا ثمَّ احتجازِنا في قفصٍ مفتوح!

هربنا من بلدنا بحثاً عن حقّنا في الحياةِ.

وها نحنُ الآنَ أصبحنا أسرى لفيروسٍ صغيرٍ، غيرِ مرئي، سلبنا أبسطَ حُقوقنا وحُرياتنا!

انتهتْ لُعبتُنا أنا وهادي؛ فعادَ المللُ يتسللُ إلى يومنا.

راقبتُ سلمى وهي تبري أقلامَ التلوينِ، وبرواتُ الأقلام بحوافها المُزركشةِ الملوَّنةِ تتساقطُ كبتلاتِ أزهارٍ زاهيةٍ.

فخطرتْ لي فكرة:

لماذا لا نستخدمُ البرواتِ الملوَّنةِ لصناعةِ لوحاتٍ فنيَّة جميلة؟

وباستخدام مادةٍ لاصقة، بدأنا نُزين لوحاتنا، كفراشاتٍ تلاحقُ النُّورَ، بحثنا عن المتعةِ في كلّ زاويةٍ من غرفتنا،

فأعدنا تدويرَ الكثيرِ من الأشياءِ التي اعتبرناها سابقاً نفاياتٍ.

يُمكن أنْ نصنعَ معنىً للحياةِ حتَى في غرفةٍ صغيرةٍ؛ حيثُ اتسعتْ لأفكارِنا، فتشاركنا تجاربَنا اليوميةَ، تناقشنا، اتفقنا واختلفنا، وصنعنا سعادتَنا معاً.

نظرتُ إلى الأفقِ عبرَ النَّافذةِ، بدتِ الغيومُ كتباً طائرةً تحتاجُ من يقرأها، ويفكّ شيفرةَ هذا الكونِ.

احترتُ إلى أيّ اتجاهٍ أنظرُ الآن!

فلم أشهدْ عبرَ نافذةِ البنفسجِ شروقَ الشَّمسِ أو غروبَها في البلدِ الجَّديد.

أسلمتُ رأسي لوسادةٍ قطنيةٍ، فانطلقتُ أعدو في حقولِ القطنِ الثَّلجية، تحوّلتُ إلى فراشةٍ بريَّة، ثم صرتُ جدولاً يتدفَّق بحريَّة...

رفعُ الحجرِ الصّحي

كعصفورٍ ينتظرُ سقوطَ قطرةِ ندى من نهايةِ ورقةٍ خضراءَ، فيغتسلُ بها مُنتشياً، انتظرتُ إطلالةَ خطوطِ الضَّوء الأولى عبر نافذةِ البنفسجِ، بدايةً لنهاري الجديدِ.

فاليوم رُفع الحجرُ الصّحي، وأصبحَ بإمكاننا التَّجولُ في المدينةِ.

وبينما كنتُ أتجولُ هنا وهناك، بدا الكوكبُ خالياً من النَّاسِ، الطُّرقاتُ والحدائقُ مهجورةً، المطاعمُ والمحلاتُ مُغلقةً!!!

لا أصوات ولا حركة. صِحتُ متعجباً:

هل صرتُ وحيداً في العالم، أين ذهبَ الجَّميع؟

سمعتُ صوتَ همسٍ خافتٍ يطنّ في أذنيّ!

لم أعرف في البدايةِ من صاحبه!

وما لبث أنْ خاطبَني قائلاً: أنا هنا أمامكَ.

أمسكتُ مُكبرتي وبحثتُ حولي، فرأيتُ كائناً يشبهُ

كرةَ الأرضِ، صغيراً جداً، وحوله تاجٌ من الأشواكِ.

سألته : من أنتَ يا حاملَ الأشواك؟

فأجابَ: أنا فيروس كورونا الفَّتاك، داخلَ الخلايا الحيَّةِ

أتكاثرُ بالانشطارِ، وننتشرُ في كلّ الأرجاء.

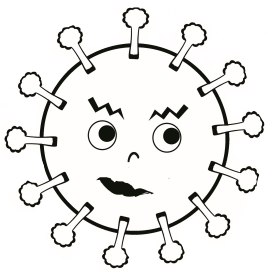

حدقتُ بمُكبرتي متعجباً، كيف تحولتْ مجهراً صغيراً يتحرَّى البكتيريا والفيروسات!

وفجأةً سمعتُ أصواتاً تهتفُ من بعيدٍ، نظرتُ هناكَ عبر مُكبرتي الزَّرقاء، فرأيتُ خلالَ النَّوافذِ البعيدةِ أصدقائي، وعدداً كبيراً من الكائنات، وأطفالاً تنادي:

الحياةُ لنا وليستْ لصاحبِ الأشواك!

همستْ أمّي في أذني فأيقظتني:

أما زلتَ نائماً يا زَين؟

هيا، هيا سنخرجُ اليوم ونتعرَّفُ على البلدِ الجَّديدِ.

قدتُ الكُرسي ذي العجلاتِ البُنيّةِ، أشقّ طريقي سعيداً بخروجنا من القفصِ، كانت الشَّوارعُ مُنظمةً، خاليةً من الحفرِ، والمنحدراتُ الصغيرة مُجهزَّةً في الطّرقاتِ والمداخل، وهي ليستْ فقط لي، ولكنْ لكلّ أمٍ تجرُّ عربةَ طفلٍ صغيرٍ، ولكلّ مُسنٍّ يتكئُ على عصا.

كما يوجدُ أماكنُ خاصةٌ لنا في وسائلِ المواصلاتِ والطّرقاتِ، وسلالمُ متحركة ومصاعدُ خاصة؛ وكأنّني في كوكبٍ آخر!

يحاولونُ في هذهِ البلادِ تسهيلَ الحياةِ اليوميةِ لنا في العديدِ من الأماكنِ...

كان على الجّميعِ الالتزامُ بالقواعدِ الصّحيةِ، ليس فقط حفاظاً على سلامتِنا، بل أيضاً حفاظاً على سلامةِ الآخرينَ.

لذلك حافظنا على مسافةِ تباعدٍ بين الأشخاصِ، وارتدينا الكمامةَ، وغسلنا أيدينا باستمرارٍ.

وكم كانَ هادي محظوظاً!

فهو لم يتجاوزِ السَّادسةَ من عمرهِ بعد، لذلك لا يُفرضُ عليه لِبسُ الكمامةِ، لأنَّ فيروس كورونا نادراً جداً ما يُصيبُ الأطفالَ، وإن حدثَ ذلك فشفاؤُهم سريعٌ أيضاً.

وبجوارِ المَخبزِ، تسربتْ إلى أنفي رائحةُ الخبزِ، فأخذتني بعيداً جداً إلى فطائرِ جدَّتي بالفرنِ وكعكِها اللَّذيذِ.

أمّا رائحةُ زهور الحدائقِ فذكَّرتني بجَدّي وبذوره الّتي ما زالتْ تختبئُ داخلَ دفتري.

غابةُ الأحلام

اشتقتُ لاجتماعاتنا الصَّباحيَّةِ حولَ طاولةِ الحجرِ في حديقةِ منزلنا، والتي بدتْ حلماً بعيداً.

لكنْ أثناء تجوالنا في المدينةِ، اكتشفنا وجودَ غابةٍ قريبةٍ، بدتْ كغابةِ الأحلامِ، تزهو أشجارُها ونباتاتُها بألوانٍ ساحرةٍ، وتوسطتْ أرضَها المكسوّةِ بالأعشابِ بحيرةٌ واسعةٌ، تبدو فيها صورة الأشجارِ الطَّويلةِ مقلوبةً رأساً على عقب، وغيومِ السَّماءِ البيضاءِ كأنَّها تغرقُ في الماءِ. وتتسلَّلُ أشعةُ الشَّمسِ بين الجُّذوعِ والأغصانِ، فتنشرُ بقعاً من النُّورِ والظّل هنا وهناك.

أصبحتْ غابةُ الأحلامِ ملجأَنا الوحيدَ نحو الحريَّةِ، بعيداً عن فيروسِ الأشواكِ وضجيجِ المدنِ، فنهربُ إلى قلبِها حيثُ الهدوءُ، الذي يزينه تغريدُ العصافيرِ، وأصواتُ الشَّلالاتِ المنحدرةِ بين الجّبالِ...

هناكَ أحملُ مُكبرتي الزَّرقاءَ باحثاً عن أسرارِ الحياة، واعتادتْ عينايَ الغوصَ في البحيرةِ، ورميَ الحصى فيها، مُراقباً تلكَ الدَّوائر الّتي تتسعُ وتتسعُ حتَّى تتلاشى.

بدا اللَّونُ الأزرقُ في الأفقِ البعيد ممتداً إلى اللانهاية، وسربُ اللّقالقِ الطَّائرةِ يُحلّقُ فوقَ الغابةِ مهاجراً.

زرعتُ بذورَ الزُّهورِ المُختبئةِ في دفتري؛ هنا في الغابةِ الخلَّابةِ، مع بدايةِ الخريفِ، لترويها أمطارُ الشّتاءِ، فتزهرَ باكراً في الرَّبيع، وتهديني بذورَها في الصَّيف المقبلِ، لأخبّئَها خلفَ الغلافِ من جديد...

نمتْ جذورُ الأزهارِ في أرضِ الغابةِ، ليصبحَ هذا المكانُ الجديدُ وطناً لها، وصنعَ أبي قُربَها طاولةً حجريّةً، تشبهُ تلكَ الطاولة في بيتنا البعيدِ...

تذكرتُ شجيرةَ اللَّوزِ الصَّغيرةَ في ذلك البيتِ الرّيفي، بيتِ الطفولة والأجداد، وتساءلتُ:

هل حقاً ستنمو بانتظاري؟

هل سأعودُ يوماً إلى بلدي، لأعتنيَ بها كما سأعتني هنا بأزهاري؟

أمسكتُ قلمي الملوَّنَ، فتناثرتْ كلماتي فوق صفحاتِ دفتري، الذي زينَّتْ صفحتَه الأولى ورقةُ الخريفِ البرتقالية، ورافقني في البرِّ والبحرِ والجَّوِ، وعبر كلّ الفصولِ، حتَّى تطايرتِ الأوراقُ راحلةً عن أغصانها في خريفٍ جديد، لتُذكّرَني بأنَّني كبرتُ عاماً...

دخلتْ أمّي، وأنا أقلّبُ صفحاتِ دفتري، ناولتني كوبَ عصيرِ الفواكهِ، ولم تقلْ شيئاً، بل خرجتْ بكلّ هدوءٍ، لتتركني غارقاً في عالمي الخاص.

كانت تعلمُ أنّي أكتبُ يومياتي، لكنَّها لم تسألني يوماً عمَّا أكتب...

وبكل الأحوال كانت تعرفُ كلَّ قصصي، إذ اعتدتُ إخبارها أغلبَ ما يحدثُ معي بشكلٍ يوميّ دونَ أن تسألَ.

قالتْ يوماً:

تابعِ الكتابةَ يا زَين، ربَّما تصبحُ يومياتك كتاباً، من يعلمُ!

وبينما كنتُ أستمتعُ بالعصيرِ اللَّذيذِ، فتحتُ بريدي الإلكتروني، لأجدَ رسالةً تدعوني للمشاركةِ في مسابقةٍ.

و يا لها من صدفة!

العنوانُ: " يومياتُكَ باللّغةِ العربيةِ ".

تحمستُ لأُراجعَ يومياتي، والفكرةُ تداعبُ خيالي،

هل يمكنُ حقاً أن أشاركَ؟ هل يمكنُ أن أفوزَ؟

إن حدثَ ذلك وتحولتْ يومياتي لكتابٍ، سأترجمُه لكلِّ لغاتِ العالمِ، وأخبّئُ خلفَ غلافِه ظرفَ بذورٍ صغير، هديةً لكلِّ طفلٍ يقرأ الكتابَ...

أغمضتُ عينيَّ، فرأيت كوكبَ الأرضِ من بعيد، ازداد اخضراراً وجمالاً...